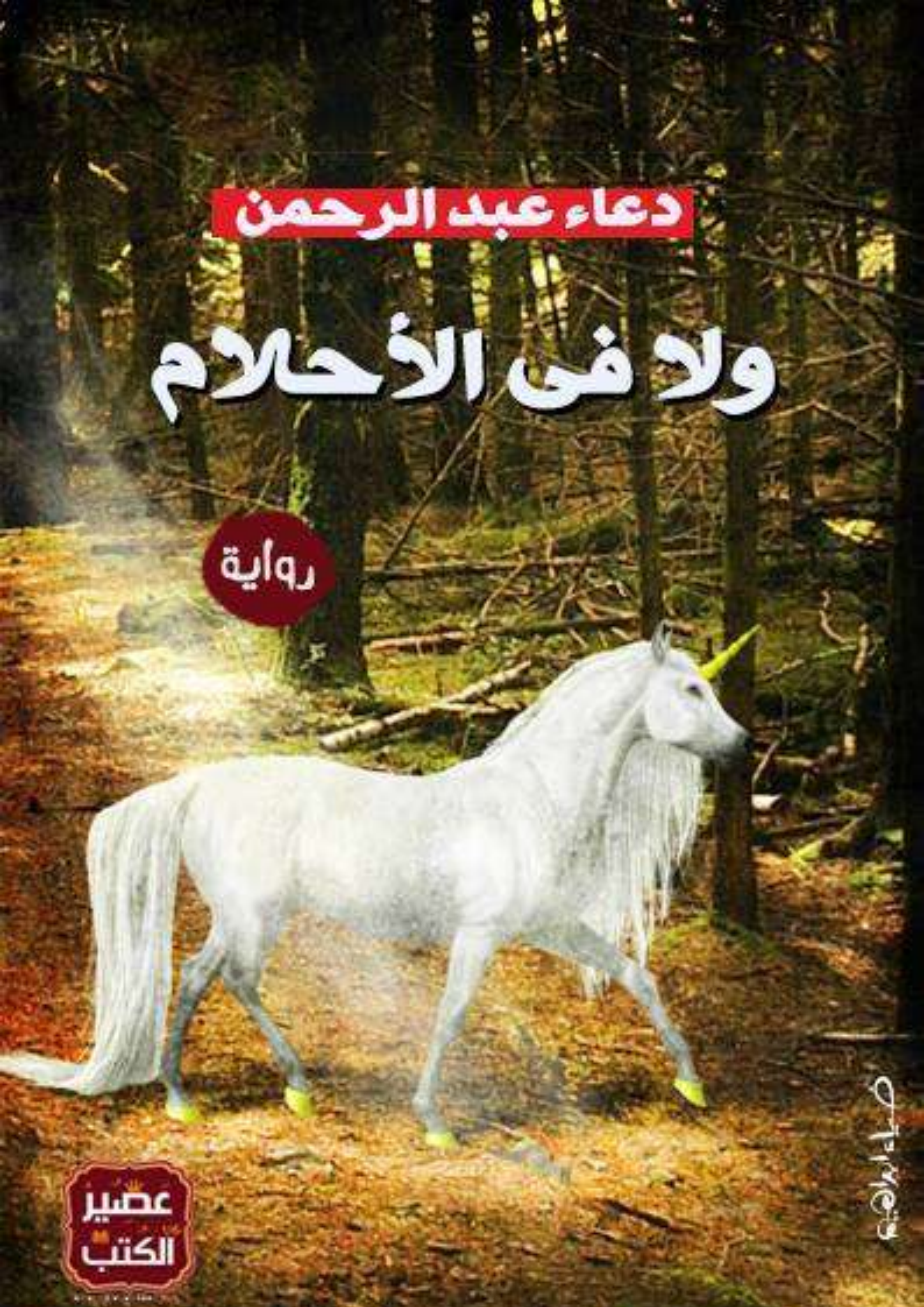

دعاء عبد الرحمن
ولا فى الأحلام
رواية
عصير الكتب

دعاء عبد الرحمن

ولا فــــى الأحــــــلام

(رواية)

ولا فـــى الأحــــلام

المؤلف : دعاء عبد الرحمن

نشر في : إبريل ٢٠١٥



مقدمة

عندما نسأم عالمنا ونتمرد عليه ، نكره هواءه الملوث بدماء أحبائنا وترابه المخلوط برُفاقم الطاهر ، نحاول أن نبتعد عنه بأرواحنا قليلاً ، نسبح فى خيالاتنا الوردية التى ننسجها كيفما نشاء ، فننصر فيه الحق بحد القلم و نقطع رقبة الظلم بمداده ، نشعر بالإنتصار .. والإنتشاء، ونحن نرى الباطل يتراجع ويخبو بين سطور أوراقنا وفى أحلامنا .

تلك الأحلام التى تجذبنا إليها برونقها ولا تتركنا إلا بعد أن تُطعِمُنا الأمل، نسبح قليلاً فيها ، مندفعين إلى ذاك الرونق الجذاب وتلك الهالة الفيروزية التى تأخذنا إلى عالم اللامعقول فــتُـــنسينا عذابنا بين طياهما الخيالية، قبل أن نرحل عنها إلى حيث عالمنا الحقيقى الذى أصبح ما يحدث فيه ... ولا فى الأحلام

****

الفصل الأول

كان يا ما كان ، فى سالف العصر والآوان ، من عصور مضت بعيدة وحضارات سحيقة . كان هناك قصر مشيد أعلى ربوة كبيرة على أطراف المدينة ، ترتفع حوله الأسوار لتفصله عن الأنظار ، وحول الأسوار أبراج عالية تراقب الخارج والداخل من الأشرار، وبداخله بستان نبتت فيه الزهور والأشجار ، يعلوه قبة مرتفعة خطيرة شديدة الإنحدار .

القصر للملك المنصور ، هذا الملك الذى ذاع سيطه بعد توليه الحكم بشهور، ماتت زوجته الملكة وتركته وحيداً حزيناً ولم يخفف عنه بعض أحزانه إلا ابنته الأميرة "ياسمينا" وولده الأمير "سيان" .

كانت الأميرة "ياسمينا" هى الأقرب إلى والدها الملك ، فلقد ورثت الأميرة جمال والدهما ورقتها ومكانتها الفريدة فى قلب الملك ، لذلك يحقد عليها أخيها الأمير "سيان" ويكرهها ويتمنى إزاحتها عن طريقه ليمتلك قلب والده وحده ، وليمتلك الحكم أيضا وحده ، ولقد كانت الأميرة تشعر بذلك وكم كانت تكره ضعفها أمامه لذا كانت تبغض كونها أنثى ، رغم حُسنها ورقتها إلا أنها بعد وفاة والدهما ظلت دائما تحاول الظهور كـــ قطة برية شرسة ، وطغت على ملامحها القسوة واللامبالاة .. ولكن كل هذا لم يعد يكفى ، مازالت تشعر بالضعف .. مازالت أنثى رغما عنها .

تطلعت إلى ماهو أكبر من القسوة والغرور، تطلعت إلى فنون الرجال ، الحرب وأسحلتها القاتلة آن ذاك، وألحت على والدها أن يأتى لها بقائد الجيوش كى يعلمها فنون القوس والسهم وضرب السيوف .

رفض الملك فى البداية ، لكن أصرارها الرهيب اضطره إلى الموافقة على طلبها الغريب .

شعرت الأميرة بالسعادة والإنتصار، فهاهى ستتعلم فنونهم أخيرًا ، ستحاكى الرجال مهارة وقوة .

واستعدت إلى ذلك اليوم الذى ستبدأ فيه أول أيامها فى عالم الرُماة ، لكنها لم تكن تعلم ماذا ينتظرها هناك .

******

– ماذا تقول يا قائد الحرس ؟! أريد أن آراه فى الحال.

أرتبك قائد الحرس وقال بخوف واضح :

– يا مولاى ..أرجوك إهدأ قليلاً .. قائد الجيوش تابعك المخلص منذ سنوات .. أرجوك يا مولاى "المنصور" أستمع إليه أولاً.

صمت الملك قليلاً مفكراً ثم أومأ بعينيه ببطء ، موافقاً على مضض ، فانحنى قائد الحرس أمامه وخطى خطوات للخلف متجهاً إلى باب القاعة الملكية وأمر الحراس بالنداء على قائد الجيوش ، خطى قائد جيوش المملكة خطوات ثقيلة وهو يدلف إلى القاعة الملكية وصوت حذائه الصارم يشق الصمت حوله ، وعندما اقترب من الملك إنحنى قليلاً بجزعه بينما أبت رأسه فظلت مرتفعة تواجه عينيه الملك المستنكر على عرشه وقال بجمود :

– مولاى

هتف الملك المنصور بعصبية واضحة مؤنبًا قائد جيوشه قائلاً:

– منذ متى وأنت تعارض أوامرى يا قائد الجيوش!

أومأ برأسه عدة مرات بخفة محاولاً التخلص من الغضب المعتمل بداخله وهو يبذل جهداً حتى لا يظهر نفاذ صبره قائلاً:

– ما كان لى أن أفعل يا مولاى.. لكن أنا فى النهاية قائد جيوش المملكة ..كيف أترك جنودى وأمن مملكتنا وأقوم بأمر هكذا ! .. أما الأميرة فلقد أمرت قائد الرماة أن يتولى أمر تدريبها بنفسه وهنا فى الحديقة الخلفية للقصر.

كان الأمير "سيان" يجلس عن يمين أبيه ويتابع ما يحدث بصمت وانتباه ، وعندما انتهى قائد الجيوش من عبارته وقبل أن يهتف والده مرة أخرى رافضاً ، مال بأتجاه أبيه قليلاً بوقار وقال هامساً:

– بعد إذن مولاى.. كلام قائد الجيوش مقبول .. فكيف لقائد الجيوش أن يترك مهامه العظام ويأتى ليعلم الأميرة فنون الرماية ؟!

نظر إليه والده بطرف عينه وهو يهتف بحنق :

– أتريدنى أن أئتمن جندي على أختك الأميرة يا "سيان" ؟!

تدخل قائد الجيوش موضحاً:

– مولاى .. هو ليس مجرد جندي ..إنه قائد الرُماة فى صفوف الجيوش .. ولا يشق له غبار فى السهم والقوس والسيف.

بدا على وجه الملك الإقتناع قليلاً وهو ينظر إلى ولده متمتماً بحيرة وقد هدأت نبرته الحادة:

– لكن الأميرة طلبت قائد الجيوش شخصياً

أجابه "سيان" وهو يتبادل مع قائد الجيوش وقائد الحرس النظرات الساخرة الخفية:

– الأميرة "ياسمينا" مازالت صغيرة يا والدى.. ومن السهل إقناعها بإنشغال قائد الجيوش بمهام أكبر وأعظم تخص مصير المملكة .

زم الملك شفتيه وعقد جبينه وهو ينظر إلى الفراغ بتركيز بينما صمت الجميع ينتظرون القرار ، وبعد قليل تنهد باستسلام وأومأ برأسه موافقاً ثم أشار نحو قائد الجيوش آمراً:

– أرسل فى طلب قائد الرُماة.

****

أنزوى الأمير "سيان" فى زاوية بعيدة من حديقة القصر بصحبة قائد الحرس الملكى وقائد جيوش المملكة وهو يضحك مشيراً إلى صدر قائد الجيوش قائلاً بسخرية:

– قائد الجيوش والأميرة المُدللـــة

تبادل قائد الجيوش النظرات الغاضبة مع قائد الحرس ثم قال بإنفعال:

– مولاى الأمير الأمر انتهى فلماذا السخرية

توقف "سيان" عن الضحك ونظر إليه نظرة ماكرة وهو يقول:

– أتُنكر أننى أنقذتُك باقتراحي؟

إبتسم قائد الحرس إبتسامة جوفاء وهو يقول بامتنان وتملق:

– ومن منا يستطيع إنكار أفكارك النافذة يا سمو الأمير!

ثم أستدرك بتفكير:

– ولكننا لم نضمن بعد ولاء أمير الرُماة .. وهذا شيء مُقلق

قطب " سيان" جبينه بشدة ونظر إلى قائد الجيوش متسائلاً باستنكار:

– ماذا؟! .. وكيف تقلد بهذا المنصب الكبير فى الجيش وأنتم لا تثقون فى ولاءه بعد!

أجابه قائد الجيوش باقتضاب:

– متميز... لا يشق له غبار.. ولقد كانت له صوالات وجوالات لم يفلح فيها غيره فى معركتنا الأخيرة .. رغم صِغَر سِنهِ

عقد " سيان " كفيه خلف ظهره وسار ببطء أمامهما يمنة ويسرة بتفكير ثم عاد والتفت إليهما وهو يشير بسبابته نحوهما قائلاً:

– سنترك أمر ولاءه جانباً إلى حين .. الشيء الأهم عندى الآن أن يكون مثل بقية الجنود والقادة .. يُطيع الأوامر بدون تفكير .. أو تردد

****

لا ، ليست جنِية من جنيات الأساطير كما يظنها من يراها من بعيد بين أحواض زهراتها اليانعة ، بل هى أميرة يافعة فى بستان قصرها الكبير، بداخلها رغبة قوية تحاول دفعها بشدة حتى لا تنحنى ولو قليلاً لتستطيع إستنشاق شذا الزهور المختلفة الألوان حتى لا تظهر بمظهر الأنثى الرقيقة التى تحب الورود والرياحين ، تريد أن تبقى شامخة كقبة قصرها العالية ، إكتفت بأن تنظر حولها نظرة خاطفة بطرف عينيها ومدت أناملها الصغيرة تتلمس أوراق الزهور فى الخفاء ولكنها توقفت فى الحال عندما سمعت حفيف الحشائش خلفها وشدت قامتها تنظر أمامها فى شموخ تنتظر القادم ، حينها اقتربت منها وصيفتها المقربة ومُربيتها الطيبة " مودة " ووقفت غير بعيدة من "ياسمينا" ودون أن تنحنى كعادتها قالت :

– عذراً سمو الأميرة .. لكن يوجد أمر هام للغاية

ابتسمت " ياسمينا " أبتسامة خفيفة وهى تتفحص قسمات الجدية المشوبة بالقلق البادية على وجه مُربيتها وقالت :

– خيراً يا " مودة " بَشريِ

توترت " مودة " بعض الشيء وهى تقول :

– ليست بشرى يا سمو الأميرة .. قائد الجيوش خرج فى مهام عظيمة خارج المملكة وهناك شخص آخر سيتولى أمر تدريبك

أنهت " مودة " عبارتها وهى تنظر إلى وجه " ياسمينا " تنتظر من أين ستبدأ أمواج غضبها وكيف ستنتهى ، وكما توقعت لم تنتظر كثيراً ، تحولت " ياسمينا " فى لحظة إلى قطة شرسة وضغطت قبضتها بقوة وهى تزم شفتاها وإلتفت إلتفاتة غاضبة وسارت فى إتجاه قاعة الحكم حيث والدها الملك وهى تدهس الحشائش بلا رحمة ، وبدأت تموجات شعرها المنسدل خلف ظهرها وعلى كتفيها تستجيب لتلك الشحنة الغاضبة فتضرب بعضها بعضاً ويتخبط خلف ظهرها بعنف ، من ذا الذى يجرؤ على مخالفة أوامر سمو الأميرة !،هل أصبحت ذليلة إلى هذا الحد ، هل يستهان بها وبأوامرها ويُضرب بها عرض الحائط بسخرية، إندفعت فى إتجاه البلاط الملكي والأبواب المغلقة تُفتح أمامها على مصراعيها حتى وقفت أمام والدها وانحنت بكبرياء وغرور قائلة:

– مولاى الملك .. هناك أمر جلل لابد من مناقشته معك الآن

أبتسم الملك لها بحنان جارف وأومأ برأسه مُجيباً :

– أمر قائد الجيوش .. صحيح ؟

قطبت جبينها ونظرت إليه بتسائل وقالت بعصبية واضحة :

– صحيح يا والدى ..

نهض الملك من مجلسه وهبطت درجتين ليقف أمامها مباشرة وأحاط كتفيها بذراعه قائلا بأبتسامة حانية :

– حبيبتى ..إنتِ تعلمين مكانتك عندى .. لكن قائد الجيوش خرج فى أمر عظيم يخص أمن المملكة وأمانها والقائد الذى سيتولى تدريبك لا يشق له غبار

ألتفتت إليه بنظرات متسائلة يتراجع بها الغضب ويخبو قائلة :

– أى قائد ؟

قال كمن يقول أمراً معلوماً :

– أمير الرُماة

عقدت ذراعيها فوق صدرها تبرماً وأطلت من عينيها نظرة مستنكرة ، حثها والدها على السير بجواره وهو يقول :

– هو فى الحديقة الخلفية الآن ينتظرك .. هيا احتفظى بحماسك من أجلي.

خرجت " ياسمينا " بصحبة الملك إلى الحديقة الخلفية حيث ينتظرها هناك مُعلمُها الجديد .. القائد " جاسر " .

****

الفصل الثانى

سارت " ياسمينا " بصحبة والدها فوق البساط الأحمر الطويل المؤدى إلى باب الحديقة الخلفية الخاصة ، وما أن انتهى مداده حتى بدأت الحديقة بالظهور شيئاً فشيئاً مصحوبة بأصوات تغريد البلابل المستقرة فوق شجيرات صغيرة مشذبة بعناية حول بوابة الحديقة ، وعلى بُعد مسافة قريبة رأته يخلع خوذته المدببة من الأطراف مما سمح للنسمات العابرة بالتلاعب ببعض خصلاته السوداء وهو يشد قامته وينظر إليهما وهما يقتربان منه ، عينيه السوداوتين العميقتين تتابع تقدمهما فى جمود وشموخ وانتباه وسيفه الضخم مُعلق فى خاصرته ، حاولت الأميرة السيطرة على علامات الرهبة التى كادت أن تكسو وجهها بمجرد رؤيته بقامته الفارهة ، وهيئته التى تنم عن فارس حقيقى مضى عمره فى القتال ، يبدو أنه يقاتل أيضاً فى أحلامه !، وبرغم ذلك لم تستطع إخفاء دهشتها التى ظهرت على وجهها ، فلقد كانت تظنه أكبر عمراً مما هو عليه .

أنتهت من نظرتها التفحصية فى لحظة وقوفهما أمامه ، أندهشت مرة أخرى عندما لم ينحنى أمامها وأمام والدها الملك وأنما أكتفى بحركة بسيطة من عينيه وهو يقول بصوت رخيم:

– مرحباً سيدى الملك .

ثم نظر إليها نظرة جعلتها تدفع أحدى قدميها للخلف بشكل تلقائي وكأنه يدفعها بنظراته الحادة وأشار برأسه بخفة للأمام مرحباً بها :

– سمو الأميرة

زاد شعورها بالدهشة فهو لم يستخدم كلمة مولاى كما هو المعتاد عند مخاطبة الملك !، سيطرت على قدمها بصعوبة وأعادتها بجوار أختها وهى ترفع رأسها بأقصى ما لديها لتذكر نفسها بأنها مولاته وهو مجرد جندي فى جيوش مملكة يحكمها والدها بينما قال والدها بترحاب يشوبه التقدير:

– سمعتُ عنك أشياء مبهرة للغاية.. وشعُرت بالحماسة لرؤيتك .

ثم أشار إلى ملابسه مردفاً بابتسامة:

– زي الحروب والمعارك فى أوقات الفراغ ؟!

أجاب بإيماءة من رأسه بهدوء وقال :

– نحن فى تدريبات مستمرة يا سيدى .

ثم تابع وهو ينظر إلى "ياسمينا" قائلاً بصوت عميق أخافها:

– والتدريبات مثل الحروب عندى

أزدردت ريقها بصعوبة وهى تشمخ بذبابة أنفها للأعلى لعلها تستجلب بعض شجاعتها وكبريائها المعهود فى صمت ، بينما اتسعت أبتسامة الملك "المنصور" وهو يرفع حاجبيه ويقول مؤكدًا:

– وصلتنى الأخبار عنك .. قدراتك لا غبار عليها يا قائد الرماة

ثم أشار إلى "ياسمينا " وقال متابعاً:

– لكن .. أحب أن يكون تدريب الأميرة " ياسمينا " مجرد تدريب..فقط

ألتفتت إليه "ياسمينا" وقالت على الفور بغرور:

– لا يا والدى .. أسمح لى .. أستطيع القيام بفنون الرجال على أكمل وجه

ونظرت إلى "جاسر" وهى تقول بغطرسة واضحة :

– مهمة الجندي فى تدريبى ليست صعبة مطلقاً .. وأعتقد أنها لن تستمر أكثر من يوم واحد أستطيع خلاله أكتساب المهارة المطلوبة

رمقها "جاسر" بنظرة ساخرة، بينما التفت إليها والدها بجسده كله وأمسك كتفيها قائلاً بحنان وهو يضغط كتفها برفق:

– لا تستهينى بالأمر عزيزتى .

ثم التفت إلى "جاسر" برأسه وقال وهو يشير بسبابته:

– الأميرة فى رعايتك يا "جاسر" .. أتمنى أن تتم المهمة على أكمل وجه.

وأبتسم لهما ثم انصرف بهدوء وهو لا يشعر بالعاصفة التى ستتبع انصرافه الهادىء .

علق "جاسر" خوذته أعلى فرع شجرة بجواره وهى تتابعه بعينيها ، ثم استدار فى مواجهتها ، عقد ذراعيه فوق صدره وهو يتفحصها ملياً فى صمت وعينيه باردة كالثلج مما جعلها تتوتر أكثر وهى تنتظر أولى أرشاداته ، وأخيراً تشجعت وقالت بصوت أظهر توترها:

– متى سنبدأ ؟

قال بملامح جامدة وهو يشير إلى ملابسها بطرف عينيه:

– أزياء الأميرات هذه للأحتفال .. لا للتدريب على القتال

نظرت إلى ملابسها المبهرجة المرصعة عند الصدر والذيل بفصوص من الزمرد ثم أعادت النظر إليه باستخفاف قائلة:

– هذه هى عادات الأميرات إن كنت تجهلها

تقدم منها خطوة واسعة وهو ينظر إليها نظرات حادة مما جعلها تعود ثلاث خطوات للخلف وهى تنظر إليه بحذر وقلق ثم توقف وقال بنبرة آمره:

– بدلى ملابسك هذه وألحقى بى هنا .. سأنتظرك

قالت بتحدى :

– لا

أستل سيفه ببطء وقوة فاصدر صليلاً عالياً أنتفض له قلبها وهى تنظر إلى نظراته الجامدة ، بدون سابق أنذار رفع سيفه فى الهواء وبحركة عكسية دفعه نحو جذع الشجرة التى كانت تقف بينهما فاخترقها السيف حتى منتصفه تماماً ثم أشار إلى السيف قائلاً لها :

– أنزعيه

تقدمت من مقبض السيف بتحدى وأمسكت به محاولة نزعه بكل قوتها ،ولكنها لم تُفلح، خطفت نظرة إليه لتجده ينظر إليها ساخراً فأعادت المحاولة بكل طاقتها وهى تمسك مقبض السيف بكلتا قبضتيها وتجذب بقوة ، شعُرت أن السيف وكأنه هو والجذع قد أصبحا قطعة واحدة ، لم تستطع حتى تحريكه وقد فقدت كل قواها ، توقفت وهى تستند إليه وتتنفس بقوة وصدرها يعلو ويهبط من كثرة الجهد المبذول ، تقدم منها بنفس ابتسامته الساخرة وأشار لها بأن تترك

مقبض السيف ففعلت وهى تشعر بالخذلان والحنق والضعف أمامه ، أمسك مقبض السيف بقبضته وأنتزعه بحركة واحدة أدهشتها وهى تراه يرفعه فى الهواء ثم يعيده إلى غمده مرة أخرى بنفس الصليل المزعج ، أتجه إلى خوذته المعلقة والتقطها ثم التفت إليها مشيراً بسبابته نحوها :

– الدرس الأول .. أطاعة أوامر المُعلم

ثم تابع بسخرية ظاهرة:

– الدرس الثانى .. صباح الغد !

تركها وانصرف بهدوء ووجهه تعلوه ابتسامتة الساخرة المغلفة ببغض هادر حاول أسكاته مؤقتاً وهو يعده بقرب جولة النهاية !

****

دلفت "ياسمينا" إلى حجرهما الواسعة وهى مازالت تحتفظ بمشاعر الغضب بداخلها ، توجهت إليها مُربيتها "مودة" وقد عَلا وجهها أبتسامة صغيرة وهى تراقب حنق الصغيرة المدللة ، نظرت إليها "ياسمينا" بانفعال وهى قادمة من الشرفة وقالت بعصبية شديدة تلعثمت معها عباراتها :

– هل شاهدتِ ما فعل .. لابد و أن يُعاقب

أنهت عبارتها وهى تجلس بعنف على طرف فراشها حانقة ، جلست "مودة" بجوارها وهى تربت على كفها قائلة:

– "ياسمينا" .. أتركِ أمور الرجال .. أنتِ أميرة ولكِ شؤونك الخاصة

ظهرت الدموع فى عينيها بغير تكلف ، لم تحاول أخفاء ضعفها هذه المرة، فهى و"مودة"وحدهما ، وهى فى الحقيقة ليست مجرد مُربية ووصيفة مقربة ، وأنما هى حاضنتها وأُماً ثانيةً لها، وضعت "ياسمينا" رأسها على كتف "مودة" وتركت الدموع تنساب من عينيها ببساطة وهى تقول بصوت حزين:

– لا أستطيع يا "مودة" .. "سيان" لن يتركنى .. إنه يريد التخلص مني وأزاحتى عن طريقه .. أشعر بكرهه لي وأخافه .. أخافه يا "مودة" !

مسحت "مودة" دمعها وهى تقول مطمئنة:

– أطمأني ..لن يستطيع إيذائك ووالدك على قيد الحياة

شردت " ياسمينا " وقالت بحزن:

– وماذا لو وقع له مكروه ؟ .. وماذا لو قُضى أجله ورحل كأمى .. حينها سأكون وحيدة وضعيفة .. أقل ما سيفعله بي وقتها وضعي فى أحد سجون القلاع البعيدة حتى أموت وحيدة هناك .

أحاطت "مودة" كتفها بحنان وحاولت الذهاب بمجرى الحديث بعيداً وتضيف مساراً مرحاً له وهى تقول:

– إذن عليكِ بالموافقة على الزواج من الأمير " نـــوار " .. لقد طلبك للزواج أكثر من مرة وأنتِ ترفضينه دائماً

نهضت " ياسمينا " واقفة ونظرت إلى " مودة " متعجبة وهى ترفع حاجبيها للأعلى معترضة:

– " نـــوار" !!

ثم ضحكت فجأة بشدة ضحكات رقيقة وهى تقول:

– "نوار" ليث أمام الناس .. هرة مستأنسة أمام " سيان"

أغمضت "مودة" عينيها بيأس ثم قالت:

– والحل ؟

شبكت "ياسمينا" أصابعها خلف ظهرها وهى تمشى مشية الرجال وتقول بتركيز:

– سأتدرب وأتعلم مهما كلفني الأمر .. سأكشف مؤامرات " سيان " أمام والدى ومُحاولاته السيطرة على حُكم المملكة.. لن أيأس أبداً ولن أترك أحداً مهما كان أن يسلب مني حقي هكذا ببساطة.

****

فى صباح اليوم التالى كانت فى أنتظاره فى الحديقة الخلفية، بثياب أقل فخامة عن التى كانت ترتديها فى اليوم السابق ،عندما رأته قادم من بعيد شدت قامتها ووقفت فى كبرياء وتصنعت التأمل فى بعض أوراق الأشجار التى كانت تقف بالقرب منها ، لم يكن يرتدى حُلة الحرب كما كان فى أول لقاء بينهما، كان بملابس الفروسية المعتادة مما أظهر ضخامة هيئته كثر من الأمس ، تنحنحت

وهى تلمحه بطرف عينيها يتقدم نحوها ثم يلقى التحية قائلاً:

– صباح الإشراق سمو الأميرة

ألتفتت إليه وكأن وجوده لا يعنيها كثيراً وهى تقول بترفع:

– مرحباً

أقترب وأتكأ بمرفقه إلى جذع الشجرة التى كانت تقف بجوارها وقال وهو يتفحص ملابسها:

– من الواضح أن الدرس الأول ذهب أدراج الرياح

نظرت إلى ملابسها ثم نظرت إليه وقالت بعصبية:

– لقد بدلت ثوبي بآخر أقل بهرجة كما طلبت بالأمس

قال وهو يومىء برأسه بتفهم:

– صحيح .. لكنها أيضا لا تناسب التدريب

عقدت ذراعيها فوق صدرها ونظرت للأعلى بضيق شديد ، ثم أعادت عينيها إليه وقالت بنفاذ صبر:

– ليس لدى ماهو أقل من هذا .. ماذا أفعل

شبك أصابعه خلف ظهره ودار حولها يتأملها ويمط كلتا شفتيه ، ثم قال بعدم رضا:

– سأحاول أن أتقبلك بتلك الهيئة هذه المرة .. الدرس القادم سيحتاج إلى تغيير ساحة التدريب كلها .. ليست نوعية ملابسك فحسب

ألتفتت إليه وهى تضيق بين حاجبيها بعدم فهم متسائلة:

– ماذا تعنى بتغيير ساحة التدريب؟ إلى أين سنذهب ؟

فتح ذراعيه على مصراعيهما وهو يقول بابتسامة غامضة:

– مملكتى الخاصة .

الفصل الثالث

مرت نظراته المتسائلة ببطء بينهما وهما يقفان أمامه ينتظران الموافقة على نقل تدريب " ياسمينا " إلى ساحة التدريب الخاصة ببستان " جاسر" الخاص ، والذى لا يلجه أحدا سواه. حاول أن يقرأ تعابير وجهيهما حتى يعلم سر هذا الطلب وهذا التحول الغريب فى شخصية أبنته العنيدة، ولكنهما مازالا يحتفظان بملامح جامدة لا تعبر عن شيء، نهض واقفاً من فوق عرشه وتقدم منهما بهدوء ثم وقف مواجهاً للقائد " جاسر " قائلاً :

– ماهى الحاجة الملحة التى تستدعى نقل ساحة التدريب إلى حديقتك الخاصة يا أمير الرماة؟

ثبت " جاسر " عينيه فى عينيى الملك وقال بهدوء :

– أرض بستانى قمت بتجهيزها منذ بداية أختيارى لها لمثل هذا النوع من التدريبات .. حديقة القصر زلقة نوعاً ما ..ومريحة بشكل لا يسمح بأى نوع من أنواع المحاكاة الحقيقية .

رفع الملك كتفيه مندهشاً وهو يقول :

– ومن يحتاج إلى المحاكاة .. إنه مجرد تدريب

تدخلت " ياسمينا " محتدة :

– أرجوك يا أبى .. عندما طلبت منك التدرب لم يكن لملىء وقت فراغى ..أنا أريد هذا بقوة.. وأنا موافقة على نقل ساحة تدريبى ..أرجوك يا أبى هذا سيسعدنى سأكون ممتنة لك .

وضع الملك ذراعه على كتفها وأخذها بعيداً نوعاً ما وهو يقول لها بهدوء:

– " ياسمينا " أنتِ فتاة .. ووصف ساحة تدريب القائد " جاسر " ليس بالأمر الهين كما تعتقدين .. هى قحلة جداً بالنسبة لفتاة .. أنتِ أميرة والمشقة لا تناسبك .

أبتعدت عنه خطوة للخلف وهى تنظر إليه باستنكار قائلة :

– أبى ! ..لقد أطلعتك على مخاوفى من قبل

أرسل تنهيدة طويلة حانقة ثم قال :

– مخاوفك هذه غير صحيحة بالمرة .. أخيكِ " سيان " يحبك وحريص عليكِ مثلى تماماً ..وهو يعمل لصالح المملكة بكل جهد وأتقان.

عقدت ذراعيها فوق صدرها وهى تقول بعناد :

– أنا مُصرة يا أبى .. أرجوك

تركها الملك وعاد إلى عرشه المرصع بالذهب والفضة وأتكأ عليه وهو يحك ذقنه بأصابعه وينظر إلى " جاسر " نظرات حادة ، ثم أشار إليه وهو يقول بتفكير :

– يجب التشاور مع الأمير " سيان " أولاً

قطبت بين حاجبيها بغضب بينما أومأ "جاسر" برأسه موافقاً ثم استأذن للأنصراف على الفور وتركها خلفه تكتوى بنار غضبها ، فهى تعلم أن والدها لا يستطيع أن يقرر شيئاً ما بدون الرجوع إلى "سيان" وأنه هو الحاكم الحقيقى للبلاد بشكل أو بآخر! .

****

أيام قليلة ووصلت "جاسر" دعوة للحضور إلى القصر عندما تتوسط الشمس كبد السماء ، ظن " جاسر" أنه أستدعاه ليبلغه قراره ، ولكنه لم يكن يعلم أن تلك الدعوة كانت من " سيان" شخصياً .

حضر إلى القصر فى الموعد المحدد وبمجرد دخوله إلى الحديقة لاحظ وجود بعض التجهيزات فى الساحة الأمامية من القصر ، نظر إلى الحارس الذى أستقبله عند دخوله وقال متسائلاً:

– ماذا يحدث ؟

قال الحارس بشغف كبير:

– الأمير "سيان " أمر بتجهيز الساحة لأقامة مسابقة فى الرماية

أبتسم " جاسر " ساخراً وقد فهم سبب أستدعائه، هى إذن محاولة للتحقير من شأنه والسخرية منه.. فليكن يا "سيان" !

أشار الحارس إلى أحد المقاعد فى صدر الساحة فاتجه إليه "جاسر" للجلوس فى إنتظار تلك المسابقة الوهمية بين الحضور، وماهى إلا دقائق وخرج الملك تتأبط ذراعه الأميرة "ياسمينا" وخلفهم "سيان" ينتصف قائد الحرس وقائد الجيوش وخلفهم بعض الحراس.

نهض "جاسر" واقفاً مرحباً وهو يشد قامته معتداً بنفسه وهو يُحي الجميع ، أنتظرت "ياسمينا" أن يفعل "جاسر" كما يفعل الجميع أمام "سيان" مقدماً

فروض الطاعة والولاء ولكنه لم يفعل !، لقد فعل كالسابق أمام الملك ، وبنفس حركة العين التى لم تكد تُلاحظ وهو يقول:

– مرحبا سمو الأمير

نظر له "سيان" شذراً وهو يتفحصه بينما جلس الملك على عرشه المُعد سلفاً فى الساحة وعن يساره "ياسمينا" فى ترقب شديد.

ضيق "سيان" بين عينيه وهو يقترب من "جاسر" متأملاً فى غرور وتحتل ثغره أبتسامة ساخرة :

– أنت إذن أمير الرُماة !

قال "جاسر" بوجه جامد كالصخر:

– نعم .. أنا هو

تقدم قائد الحرس منهما وقال موجهاً أمره نحو "جاسر" :

– أظهر ولائك لسمو الأمير "سيان "

أبتسم "جاسر" بجمود وهو يقول :

– أظهرت ولائى من قبل بتسخير قدراتى الكبيرة لصالح المملكة.. ولنفس السبب الآن أنا قائد الرماة

أبتسم "سيان" ابتسامة عابثة يحفها الإعجاب وهو يرفع حاجبيه قائلاً:

– مغرور !

ثم تابع وهو يهز رأسه بخبث:

– سنرى

عاد "جاسر" إلى مقعده بهدوء بينما نظر "سيان" إلى قائد الحرس بأسف وهو يقول:

– مع الأسف .. لن نستطيع الأستفادة من مهاراته المزعومة كثيراً

وضع قائد الحرس يده على حسامه فى غمده فأشار له "سيان" أن ينتظر نتيجة المسابقة ، تم وضع وتثبيت الهدف الذى ستجرى عليه المسابقة وسط الساحة أمام أعين الحضورالمترقبة ، وقف "سيان" وهو يفتح ذراعيه بحركة مسرحية وقال بصوت جهورى:

– الآن سنرى قدرات قائد أهم قواتنا

نهض "جاسر" بثقة ، ووقف الإثنان على مسافة مناسبة من الهدف، ألتفت "سيان" إلى المدعوين جميعاً مُمَرراً عينيه بينهم مدققا فى غرور وثقةً وكبرياء ثم ضحك باستهزاء وهو يُخرج من جعبته سهماً سدده بأحكام وتمهل ثم أطلقه ، انطلق السهم مصيباً وسط الهدف تماماً فى ضربة موفقة مما جعل الجميع يصفق فى أعجاب شديد، وامتقع وجه "ياسمينا" بحزن ، بينما نظر له "جاسر" بعدم أكتراث ثم هز كتفيه باستخفاف قائلاً:

– ضربة موفقة لا يفوقها إلا...

وتابع وهو يسدد سهماً سريعاً بدون أعتناء :

– إلا سهامى

لم يصب سهم "جاسر" قلب الهدف كما كان يتوقع الحضور، بل حاد عنه بمسافة أصبعين ، أنفجر "سيان" ضاحكاً هو وقائد الحرس وقائد الجيوش وبعض المدعوين ، بينما شعرت "ياسمينا" بالدماء تغلى فى رأسها وأصابتها خيبة كبيرة ، فلقد كانت تلك المسابقة ماهى إلا أشارة إلى موافقة والدها على أنضمامها معه إلى بستان تدريبه الخاص أو مملكته الخاصة كما يحب تسميتها، لاحظت "ياسمينا" أن " جاسر" لم يتأثر بضحك أخيها وأتباعه وإنما أخرج سهماً آخر وبنفس السرعة وعدم الأكتراث أطلقه ، ولقد حاد أيضاً السهم الثانى عن قلب الهدف بمقدار اصبعين أيضاً ولكن فى الأتجاه المقابل ، علت الضحكات الساخرة فى الساحة وزاد انكماشها فى مقعدها ، لكنه لم يكترث مجدداً وأخرج سهمين آخرين وأطلقهم بنفس السرعة .

وهنا أدرك الجميع لُعبة "جاسر" لقد كون ما يشبه الدائرة حول سهم "سيان" وكأنه يحاصره ، والسهم المقبل سيقوم بقتل سهمه الذى مازال ساكناً فى قلب الهدف ينتظر موته ، أنتبه الجميع بتركيز وسكون شديد وهو يخرج السهم

الخامس ، ولقد كان سهماً مميزًا رفيعاً للغاية وحاداً ، سدده بعناية كبيرة وأطلقه فى حركة فنية متقنة رائعة ، أنقض سهم "جاسر" الأخيرعلى سهم "سيان " فشقه نصفين وأسقطه واستقر مكانه ، فى القلب تماماً .

أرتفع التصفيق الحاد والهتاف المتواصل ، لم تتمالك الأميرة ردت فعلها ،فوجدت نفسها تنهض مبتسمة وهى تضم قبضتيها إلى صدرها علامة على السرور والابتهاج .. والنصر !.

تبعها الملك ناهضاً والإعجاب يحتل ملامح وجهه وعينيه وأمر بنيشان وقلده أياه علامة على فخره بأحد قواده ، أقبل بعض الحضور يهنئونه فى أعجاب شديد ، ولكن فجأة تحول الهتاف إلى شهيقاً وذعراً حينما استل قائد الحرس سيفه وانقض على " جاسر" فى بغض شديد وفى مفاجأة غير متوقعة ، أستدار "جاسر" فى جزء من الثانية ، وأصطدم النصلان فأحدثا صليلاً يرهب القلوب . تبادلت "ياسمينا" النظرات مع والدها الملك وهى تقول بترقب:

– أبى ؟!

انخفض "سيان" بجزعه نحو أبيه وهو يقول مطمئناً وينظر نحوهما بخبث:

– مجرد أختبار قدرات يا مولاى

برغم من أن الهجوم كان مباغتاً إلا أن "جاسر" كان متزناً فى جميع تحركاته بل ولم يكن مهاجماً قط ، كان متخذاً موقف المدافع فقط ، وما كان هذا إلا بسبب حنكته فى اللعب بالسيف ، فلقد كان يدرس تحركات قائد الحرس وطريقة قتاله وألآعيبه جيداً ويسبر أغواره ليعلم نقاط ضعفه التى سوف يستغلها بشكل مؤثر وقوى لينهى تلك المبارزة سريعاً .

بدأت اللعبة تحلو له ، وبدأ يستغل نقاط ضعف غريمه بشكل أضحك الحاضرين عدة مرات مما آثار غضب قائد الحرس وثارت ثورته وبدء فى الهجوم الخبيث القاتل والذى لا يقوم به إلا الصعاليك من الفرسان لكسب جولة خاسرة .

قام قائد الحرس برفع وشاحه الكبير الذى كان معلقاً خلف ظهره ليلقيه على سيف "جاسر" ليشل حركته وقد عزم على قتله ، ولكن "جاسر" كان أسرع منه لعلمه مقصده من تلك الحركة الخبيثة فانتزع النصر فى نفس اللحظة الذى تشتت فيها أنتباه قائد الحرس بين نزعه لوشاحه والطعن بالسيف فلم يشعر إلا وسيفه يطير فى الهواء بعد ضربة قوية والدماء تنزف من أصابعه الجريحة .

ألتفت "جاسر" فى مواجهة الملك قائلاً بحدة مدروسة:

– لم أكن أعلم يا جلالة الملك أنك قد دعوتنى إلى قصرك لتقتلنى

ثم ألتفت إلى قائد الحرس قائلا بغضب:

– لعبة قذرة لا يقوم بها سوى الصعاليك .. ولكنى إكتفيت بإصابة أصابعك فقط

نهض الملك وهو يتقدم بغضب باتجاه قائد الحرس وهو يقول موبخاً:

– عار لا يليق بك يا قائد الحرس .. وفى حضرة الملك؟!

تقدم "سيان" واقترب من والده ووجه حديثه إلى قائد الحرس قائلاً وهو يشير إليه بعينيه لكى ينصرف:

– ضمد جُرحك يا قائد الحرس

ثم وجه حديثه للملك محاولاً تجنب أى مواجهات الآن قائلاً :

– مولاي ... لقد كان مجرد اختبار

أستدار الملك نحو "جاسر" وقال بانبهار:

– أبهرتنى براعتك وسمو أخلاقك يا قائد الرماة

و صمت برهة من الوقت ثم قال:

– أنت من الآن المسئول عن الأميرة "ياسمينا" .. قم بتدريبها حيث تشاء

***

تحرك موكب الأميرة باتجاه حديقة القائد "جاسر" وساحة تدريبه الخاصة ، كان الموكب يضم بعض الحراس بالأضافة إلى مُربيتها المقربة "مودة" التى دعتها "ياسمينا" إلى صحبتها لعلها تحتاج إليها هناك ، وبمجرد وصول عربة الأميرة بين موكبها الفخم ، أشار لهم "جاسر" بالتوقف عند البوابة بإشارة من يده ثم قال بصرامة للحراس:

– الأميرة فقط

نظر الحراس إلى بعضهم البعض تبرماً بينما تقدم "جاسر" من عربة الأميرة وفتح بابها ناظراً إلى "ياسمينا" وهو يقول بجدية:

– أنتِ فقط

جاءه صوت "مودة" من الجهة المقابلة داخل العربة وهى تقول بصوت حنون:

– وأنا ؟

ألتفت إليها "جاسر" وقال بابتسامة عطوفة مُرحبة:

– وأنتِ سيدتى

أمرت "ياسمينا" الحراس بالرحيل ولم يبقى معها إلا جندي واحد ينتظرها فى الخارج بجوار سائق العربة ، بينما دلفت هي بصحبة مُربيتها وهى تراقب عن كثب كل شيء حولها ، كانت الحديقة مميزة رغم صغر حجمها بالنسبة لحديقة القصر ، فى بداية البستان أرضاً مُمهدة كما هو حال جميع حدائق القصور وعلى جوانبها أشجار عالية وكأنها تستخدم كأبراج مراقبة وينتصف الحديقة بركة مياة صغيرة تظللها أشجار الريحان ، عن يمينها يقبع منزل صغير بسيط البناء ، أشار لهما "جاسر" أن يستمرا فى السير ففعلا حتى تعدا البيت وبركة المياه وهنا بدأت الأرض الغير مُمهدة فى الظهور و شعرت "مودة" بألم يغزو كاحليها فأعتذرت منهما وعادت إلى حيث بركة المياة تنتظرهما ، فهى كبيرة فى العمر لا تستطيع أن تتوغل أكثر فى تلك الأرض القاحلة ، ربتت "ياسمينا" على كتفها بحب وتفهم ثم تبعت "جاسر" بتحدى متجاهلة سرعة أنفاسها التى بدأت فى الظهور ، بدأت الأميرة فى رفع ذيل ملابسها لتستطيع رؤية وتخطى العقبات الغير مستوية وهى تشعر بصعوبة فى السير فى تلك اللحظة لفت انتباهها نوع آخر من جذوع الأشجار تم تقليمها تماما وينتصفها حفراً منتظماً لعدة دوائر متداخلة من الواضح أن "جاسر" يستخدمها كأهداف تدريبية له على الرماية ، ويظهر خلفها هضبة صغيرة بعد تخطيها بقليل سور عالٍ أسفله باب كبير نوعًا ما، ألتفتت "ياسمينا" باتجاه "جاسر" الذى كان يسير بجوارها بتمهل وقالت بعينين متسائلتين:

– ماذا يقبع خلف هذا الباب ؟

قال بعينين براقتين وهو يعقد ذراعيه فوق صدره

– الغابة .. !

****

الفصل الرابع

رفعت "ياسمينا" حاجبيها متعجبة وهى تقول بتساؤل وفضول:

– وكيف يكون هناك باباً بين الحديقة والغابة ؟

إستدار وهو يشير بأصبعه إلى جذع الشجرة القريب منهما وهو يقول آمراً متجاهلاً سؤالها :

– أتبعينى

هتفت بغضب مفاجىء وهى تشيح بيدها :

– لا تلقى بوجهى أوامرك هكذا .. أنا أميرة ولستُ من عامةِ الشعب

لم يلتفت إليها وإنما سار قليلاً حتى وقف أمام الجذع المنشود وأخذ جعبة السهام المعلقة على أحد أطرافه المدببة وقام بوضع أحد السهام بداخل القوس وقال بلهجة قاسية أرعبتها :

– تعالى

أبتعلت ريقها بصعوبة بالغة وهى تنظر له نظرات حانقة إلا أنها لم يسعها إلا أن تتقدم بإتجاهه رغماً عنها حتى وقفت أمامه مباشرة وقالت بغطرسة متلعثمة :

– أتبعتك فقط من أجل أتمام تدريبى .. ليس أكثر

ابتسم رغماً عنه ابتسامة خفيفة وناولها القوس فأخذته وهى تنظر له تتفحص السهم والقوس الذى يحويه والذى أظهر مدى ضعف قبضتها وصغر حجمها ، لم يبالى "جاسر" بمحاولاتها لاستكشاف الطريقة الصحيحة للإمساك بالقوس وجذبها من ذراعها وأوقفها أمامه مباشرة ولف ذراعيه ليحيط بمرفقيها كى يثبتها بشكل صحيح أمام الهدف مما أظهر الفرق الواضح فى الطول بينهما وضآلة حجمها بجواره وانكماش جسدها بين ذراعيه ، أنحنى قليلاً للأمام ليحدثها مما جعل ذقنه يلامس رأسها وجعلها تضطرب وتنزع نفسها من مكانها ، أبتعدت خطوة للأمام وقالت بتردد وقد سبحت وجنتيها الخمرية فى بحر من حُمرة الخجل :

– من فضلك .. أبتعد قليلاً

صمت لحظات يتفحصها وقد أحتفظ بملامح جامدة لا تعبر عن شيء ثم قال ببطء :

– لماذا ؟

أنصرفت بوجهها فى الاتجاه الآخر وهى تفرك قبضتيها متوترةً ثم قالت مكررة:

– من فضلك .

أستدرج وهو يحتفظ بجمود ملامحه ويتفحص توترها:

– إنه مجرد تدريب يا صغيرة .. وليس غزل عاطفى

لم تجبه ولم تنظر إليه، فتقدم منها خطوة مما جعلها تعود بوجهها إليه وتنظر بعينين مترقبتين فجذبها من ذراعها بصمت وأوقفها أمامه مرة أخرى وأحاط ذراعيها كما فعل من قبل ولكنه حرص هذه المرة على خلق مساحة معقولة بين جسديهما ، شعرت "ياسمينا" بشيء من الراحة أكثر وقالت مستفهمة ناظرة للهدف :

– المسافة بينى وبين الهدف قريبة جداً !

أنحنى قليلاً للأمام قائلاً:

– لأنك مبتدئة .. والآن كفى ثرثرة .. ضعى الهدف نصب عينيكِ البنيتين واجذبى السهم إليكِ بقوة

ألتفتت إليه وقد تعجبت منه لذكره لـــون عينيها فى تلك اللحظة فقال بحسم دون أن يلتفت لها :

– أنظري للهدف فقط

أعادت وجهها للأمام مرة أخرى سريعاً وحاولت شد القوس بكل قوتها ، لم تستطع إلا جذبه قليلاً وأطلقته فطار قليلاً فى الهواء وسقط على الأرض على بُعد خطوات منها

*****

نهض "نوار" وهم بأن يتحدث بغضب لولا أن أمسك لسانه فى اللحظة الأخيرة متذكراً أنه يقف أمام "سيان" الذى لا يرحم وأبتلع ريقه وهو ينظر للأسفل ليهدأ من نبرة صوته ويختار كلمات لا تُغضب " سيان " منه ، حتى بدا هادئاً وهو يقول بأدب جم:

– سمو الأمير أسمح لى .. أعتقد أن وجود الأميرة "ياسمينا" مع رجل متوحش مثل "جاسر" شيء خطير جدًا

أبتسم "سيان" هازئاً وهو يكرر:

– متوحش ؟!

أشار "نوار" إلى يوم المسابقة فى قوله:

– مولاى لقد كان متوحشاً للغاية فى ساحة القصر يوم ...

قاطعه "سيان" بغضب وهو يصرخ فيه :

– المسابقة كانت مجرد اختبار .. لا أحد يستطيع هزيمتى أبدًا

أنكمش " نوار " مكانه وتلعثم وهو يحاول تهدئة الأمر بينما نهض قائد الحرس وتقدم بجوار "نوار" ووضع يده على كتفه وقال بمكر:

– صديقنا الأمير "نوار" ..لا تقلق .. مستقبلك فى المملكة مضمون .. أنت صديق مطيع وسمو الأمير "سيان" يحب الطاعة فى أتباعه أكثر من أى شيء آخر

هز "نوار" رأسه سريعا وهو يقول مؤكداً:

– طبعاً .. بالتأكيد

لمعت عينيى "سيان" بخبث واستدار فى مواجهة " نوار" وقال :

– " نوار" .. أنت ووالدك معروفين فى المملكة بسمو الروح والتطلع إلى مجد السماء أكثر من مجد الأرض .. صحيح؟

أومأ "نوار" برأسه مؤكدًا وهو يقول:

– صحيح يا سمو الأمير

تابع "سيان" وهو يسير بإتجاهه ويضع كفه على كتفه الآخر ويقول:

– وأنت ترى أن انفراد الأميرة "ياسمينا" بجندي فى حديقته الخاصة وبأمر من الملك المنصور شيء غريب يثير الأشمئزاز فى نفوس أصحاب الأخلاق مثلكم ... صحيح ؟

صمت "نوار" وقد أيقن أن "سيان" يريد منه شيء ما لا يريد الأفصاح عنه بشكل واضح ، رفع "سيان" رأسه لينظر فى عينيى "نوار" نظرة آمرةً وهو يقول:

– بالتأكيد عندما تتكلم بين عامة الشعب وتحكى لهم مخاوفك سيشعرون بنفس اشمئزازك لما يحدث

ثم مال برأسه يساراً وهو يتابع بخبث:

– وبالتأكيد ستحصل على احترام وتأييد كبير لك ولأسرتك بين شعب المملكة.

تبادل "سيان" النظرات مع قائد الحرس بينما أيقن "نوار" أن "سيان" يعتمد على سمعته ووالده وأسرهم من النبلاء ، ويأمره بشكل غير مباشر بأن يمشى بين عامة الشعب بالتحدث فى خلق الأميرة "ياسمينا" وقائد الرماة " جاسر" وتقليب الناس عليهما وأثارهم ضدهما، لم يكن أمام "نوار" فى تلك اللحظة سوى الموافقة الضمنية على خطة "سيان" فهو كان يطمح فى أن يتزوج من الأميرة "ياسمينا" الجميلة ، ولكن من الواضح أن الأمر بات صعباً للغاية نظراً لرفضها الدائم له بجانب تطلعها إلى فنون الحرب والنزال ثم ظهور "جاسر"

(المتوحش) المفاجىء فى حياهّا ، فلماذا يخسر كل شيء، لماذا لا يطيع "سيان" فى كل ما يأمر به لعله يفوز بشىء من السُلطة التى كان يتطلع إليها بجوار أميرة حسناء وإن كانت تبغضه !.

****

نظر" جاسر" إلى السهم المُلقى على الأرض ثم نظر لها بغضب ظاهرقائلاً:

– لقد قلت أجذبي السهم فقط .. ولم آمرك بأطلاقه

رفعت رأسها إليه ومالت برأسها يمينا فانحدرت غرهّا إلى اليمين مع أمالت رأسها ونظرت إليه بشك وهى تقول:

– وما الفرق ؟

زفر بقوة وهو يضع يديه فى خاصرته قائلا:

– فرق كبير جدًا يا صغيرة.

ثم أشار إلى السهم وقال بشكل روتيني :

– خذى السهم والقوس وتحسسيهم جيدا .. لابد وأن تستشعرى تفاصيلهما بين يديكِ جيداً .. من المفيد أن تتكون علاقة بينك وبين سلاحك

هم بالأنصراف فنادته ليتوقف وهى تقول :

– إلى أين ؟

قال دون أن يلتفت :

– أفعلى ما أمرتك به

وقفت "ياسمينا" فى حيرة من أمرها وهى توزع نظراتها بين القوس فى يديها والحديقة من حولها ، لا تعرف ماذا تفعل ، كيف تتكون علاقة بين المتدرب وسلاحه ؟! ، تناولت السهم من فوق الأرض فى سرعة وبدأت تنظر إليه بتأمل شديد وهى تمرر أصابعها الصغيرة عليه تتحسسه كما أمرها ، شعرت بنعومته المغلفة بالقسوة والحدة ورأسه المدبب الذى صُمم خصيصاً ليقتل ، وهناهاجمتها خاطرة قوية ، حتى وإن تعلمت فن الرماية والنزال وأتقنتها هل سيأتى يوم من الأيام ستضطر فيه إلى قتل أحدهم !.. هل ستجروء على سفك الدماء حتى وإن كان دفاعاً عن نفسها وحياتها ومكانتها الخاصة؟ ، بين يديها القوة والسلاح ولكن فكرة سفك دماء أنسان كانت شديدة عليها جدًا ، جعلتها تتردد وتفكر فى العودة ، ونسيت أو خبرتها الضعيفة جعلتها تتناسى أمراً هاماً ، القوة ليست دائما لسفك الدماء ، وإنما خُلقت القوة أيضاً للدفاع عن الأبرياء ومنع سفك دمائهم !، أخرجها "جاسر" من تشتتها وهو يقول عائداً :

– ماذا تفعلين ؟

ألتفتت إليه متفاجأة مما سمح له أن يرى الحيرة والتشتت فى عينيها وحركات جسدها ورأسها المترددة فقال وهو يقترب منها :

– سنعيد التدريب للمرة الثانية يا صغيرة .. وهذه المرة لا تفعلى شيئاً بدون أمر مني

رفعت رأسها بعصبية وقالت بتكبر:

– لا تتحدث إلى هكذا .. وكف عن مناداتى بالصغيرة

جذبها من رسغها وسحبها خلفه بقوة باتجاه السور العالى وهى تعدو خلفه محاولة التخلص من قبضته ، لا تستطيع اللحاق به وهو يسحبها خلفه هكذا ، وأخيراً دفعها باتجاه جذع ضخم ، وترك يدها ، أمسكت رسغها بألم وهى تنظر إليه برهبة وهو يقول:

– غطرستك تلك لا تصلح معي هنا.. أنتِ هنا فى مملكتى يا صغيرة ..أتفهمين

ثم أشار إلى الباب وهو يقول محذرًا:

– إما أن تطيعى الأوامر وإما أن تخرجى بلا عودة

دفعته بعيداً أو هكذا ظنت أنها تدفعه، فهو لم يتحرك على أثر دفعتها ، وخطت خطوات سريعة أقرب إلى العدو باتجاه مربيتها " مودة " وما أن مرت بها فى ثورتها الغاضبة التى جعلت مرورها كالعاصفة وقالت بغضب :

– أتبعينى .

ألقت "مودة" نظرة إلى "جاسر" الذى كان يتقدم نحوها بجمود وببطء ثم أنصرفت خلف "ياسمينا" على الفور.

****

الفصل الخامس

ألقت "مودة" نظرة إلى "جاسر" الذى كان يتقدم نحوها بجمود وببطء ثم أنصرفت خلف "ياسمينا" على الفور .

وما أن أختفى أثرهما من أمامه حتى مد يده خلف ظهره وأخرج رسالة كان يضعها فى جعبة سهامه وفض الشريط الحريري الذى كان يحيط بها وفتحها ومرر عينيه بين سطورها وقد اتسعت ابتسامته بحب واهتمام .

***

تناولت "مودة" كف "ياسمينا" وضاقت حدقتيها وهى تنظر بتعجب إلى معصمها وعلامات الإحمرار المرسومة حوله ، جذبت "ياسمينا" يدها بعنف منها وظلت تفرك بها بعصبية شديدة وقد احتقن وجهها بشدة وقالت وهى تضغط أسنانها بغضب:

– مجنون ..!

هزت "مودة" رأسها بعدم رضا وهى تبتعد وتغلق أستار الشرفة وقبل أن تستدير سمعت "ياسمينا" تهتف بحنق:

– "مودة" أرسلى فى طلب الخياط فورا .

****

أجتمع "سيان" بأمراء المملكة ومسؤليها ليبحث معهم أحوال الرعية بدون حضورالملك ، واستمع إليهم وإلى ما يحدث وما يتكلم الناس به بالمملكة وماهى شكواهم المتعاقبة والمتوالية والتى تثير جدلاً واسعًا بينهم فقال أحدهم :

– المياة والخبز والشموع يا سمو الأمير

بينما قال آخر:

– أرتفاع الأثمان فى الأسواق يا مولاى

وقال ثالث:

– كثُر الشحاذين والبطالين فى المدينة يا مولاى وأمتهن بعضهم السرقة وقطع الطرق على الناس

حك "سيان" ذقنه وقال بابتسامة ماكرة :

– تم رفع الشكاوى إلى الملك ولكن .. لم يبدى أى اهتمام

سارت الهمهمات بين البعض والصمت الخانق بين البعض الآخر

وضع "سيان" قبضته على المائدة فى علامة على أنتهاء الأجتماع فنهض الجميع وهم ينحنون خوفًا إتقاءاً لشره، وما أن انصرف الجميع حتى مال قائد الجيوش للأمام وهو ينظر إلى "سيان" بإعجاب قائلاً:

– أرى روح "سيان" القائد الأكبر تطوف حولك يا سمو الأمير .. أنت على خطاه تماماً

أنتفخت أوداج الأمير"سيان" وانتفش أعجابا وزهواً بنفسه وبإطراء قائد جيوشه عليه وتشبيه بقائد الجيوش والحاكم الأسبق للمملكة

"سيان الأكبر" ثم ضاقت عينيه بخبث وهو يشير بيده موجهاً حديثه وتعليماته لـــ قائد الجيوش قائلاً:

– أصدر أمراً لرجالنا بسحب كمية أكبر من السلع والشموع من الأسواق وأرسل إلى رجالنا من التجار بأمر مباشر مني بأن يرفعوا الأسعار أكثر .

أحنى قائد الجيوش رأسه موافقاً بينما تابع "سيان" قائلاً :

– وبعد أن يبدء الناس فى الشكوى والضجيج والسخط .. أصدر أمرًا لجنودك بأن يخرجوا ما لدينا فى المخازن ويقوموا بتوزيعه على الناس بدون مقابل قائلين بأنها هدايا الأمير" سيان " الطيب.

وابتسم ابتسامة خبيثة وهو يردف:

– مع خالص حبى .

******

شرع "جاسر" فى أنهاء صنع قلادة الريحان التى أنشغل بها كثيراً وكأنها شغله الشاغل بجوار أشجار الريحان ، ولكنه استرعى أنتباهه صوت صهيل قادم نحوه ، رفع رأسه ينظر فإذا بجواد أمهر ناصع البياض قادم نحوه برشاقة وهدوء .

وقف "جاسر" محدقاً فيه هو و فارسه وهو يقترب منهما ، إتسعت عيناه متعجباً وهو يرى "ياسمينا" وهى تترجل من فوقه فى حلتها الجديدة .. ترتدى ملابس الفرسان ولكن بما يناسبها كأنثى ، وتربط وشاحاً خلف ظهرها متزلقاً على أحد كتفيها ،وتعقص شعرها للخلف ساجنة تموجاته الثائرة بين قضبان طوقها المميز .

ترجلت "ياسمينا" ووقفت أمامه بثقة وعلى ثغرها ابتسامة نصر، فلأول مرة تستطيع أن تنتزع منه علامات التعجب وتظهرها على وجهه رغماً عنه ، بل وتجعله يتخلى عن ملامح الجمود المسيطرة عليه دائمًا معها .. وأخيراً نطق بما يعتمل داخله من دهشة متسائلاً :

- "ياسمينا" ؟ !

أبتسمت وهى تتجه إليه خطوة وتقول:

- الفارسة " ياسمينا"

عقد ذراعيه أمام صدره وهو يتأملها وقد بدء يستوعب التغير الذى طرأ عليها قائلاً:

- الآن أصبحتى مستعدة للتدريب ..

ثم استدار بابتسامة وهو يشير لها بيده قائلاً :

- أتبعينى

تبعته وهى تظر إلى قبضته التى يتدلى منها عقد الريحان وتتمتم بصوت خفيض:

- هل أنت قائد الرماة .. أم عاشق!

يبدو أنه قد سمعها فأجاب قائلاً:

- لا مانع أن يكون العاشق قائداً .. أو القائد عاشقاً

تنحنت بإحراج واحمرت وجنتاها وهى تتبعه بصمت، وصل إلى نفس الجذع الذي كان يدربها عليه في المرة السابقة ، ثم أشار إليها أن تأخذ وضع الإستعداد وهو يناولها القوس والسهم مجدداً ،أمسكت بهما وهي تتحاشى النظر إليه ووقفت في وضع الإستعداد وهي تمسك بالقوس بكل قوتها وسمعته يقول لها آمرا :

- إجذبي السهم بقوة .. ركزي عينيكٍ على الهدف

جذبته بكل قوتها وهي تحبس أنفاسها كمن يُدفع في المياة العميقة رغماً عنه، وضاقت حدقتاها وهي تنظر للهدف بتركيز.

أنتظر جاسر لحظات ينظر إليها بإختبار هل ستطلق السهم دون أمر منه كما في المرة السابقة أم لا ، أبتسم حين وجدها منتظرة أمره بإطلاق السهم وقال بجدية :

- الآن

تحرر السهم من بين أصابعها منطلقًا نحو الهدف على أثر كلمته ، فاستقر على بُعد أربعة أصابع يمين الهدف ، أرسلت زفراتها بيأس وهى تشعر بالإحباط ولكنها استدارت ناظرة إليه بتعجب حينما سمعته يصفق بكفيه قائلا :

- رائعة .. أنتِ رائعة

نظرت إليه بشك وهي تظن للوهلة الأولى أنه يسخر منها . ولكنها وجدت علامات الإعجاب بادية على قسمات وجهه فقالت متوترة :

- حقيقي !

فأومأ برأسه مؤكدا وهو يبثها الثقة في رميتها قائلا :

- حقيقي .. رائعة كمبتدئة

فابتسمت بسعادة وهى تضم قبضتها إلى صدرها كما تفعل دائما عندما تشعر بالسعادة وشعرت بالإصرار يسري بداخلها وهتفت بتلقائية:

- أشكرك

أبتسم وهو يأخذها إلى جذع آخر أكبر من أخيه وثبت الهدف علاأعلاه بحيث اصبح اللللتتتتىىىةىتتاتاتاتتاتاتالاتتةةةةةةةةةةة

أعلاه مما جعلها ترفع رأسها تجاهه باضطراب وهى تقارن طولها بطول الجذع المرتفع فالتفت إليها وهو يقول بجدية:

– صوبى السهم

أبتلعت ريقها بصعوبة وهى ترفع يديها للأعلى و تصوب سهمها من جديد فاقترب منها ورفع يديها للأعلى قليلا وقال :

– أجذبى

كما فعلت فى السابق جذبت السهم بقوة وحبست أنفاسها بصدرها تنتظر أمره بالإطلاق .. أمرها وأطلقت واستقر السهم أسفل قلب الهدف بقليل فهتفت بفرحة :

– نعم .. نعم .. نعم

أبتسم وهو يرى سعادتها التى تتجلى واضحة عليها كالأطفال وقال مشاكساً :

– لا تغترى بنفسك أيتها الفارسة .. الغرور أول مسمار فى نعش النجاح

شعرت بالإنتشاء والتحدى وهى تتناول سهماً آخر وبداخلها إصرار على النجاح ، بدأت الشمس فى الغروب سريعاً ورغم الإرهاق التى كانت تشعر به إلا أن نشوتها جعلتها تتناسى الألم الذى بدء يدب فى أوصال ذراعيها وكتفيها وأصابعها، لاحظ "جاسر" أنها بدأت تقبض قبضتها وتبسطها مراراً وتكراراً فأيقن أنها تؤلمها بشدة فقال وهو يوليها ظهره بلامبالاة:

– نكمل غداً

زفرت بارتياح وهى تتوجه نحو جوادها بينما سار هو بجوارها ولكنه توقف فجأة مما جعلها تتوقف ناظرة إليه ، فأخرج عقد الريحان الذى صنعه قبل مجيئها وأمسك معصمها وجعل يلف العقد حوله ببطء وهو يقول مشاكساً :

– حسناً .. لقد زال أحمرار معصمك تماماً

لم تسمع عبارته بل ظلت صامتة وهى تنظر للعقد حول معصمها مصدومة ، قطع "جاسر" سيل أفكارها وهو يشير بأصبعه بمرح نافيًا وهو يقول:

– لالا ... ليس لكِ .. أنه للسيدة " مودة"

رفعت رأسها له فى صدمة أكبر أنتشلتها من أفكارها المتخبطة وقالت بدون وعى:

– ولكنها أكبر منك بكثير

ضحك ضحكة عالية وهو يقول بمرح:

– هل تلومينى .. القلب وما يهوى

عقدت حاجبيها وخطت بعصبية وتوتر وهى تتابع طريقها .

أما هو فقد عقد كفيه خلف ظهره ومشى خلفها بتؤده ، توقفت فجأة و ألتفتت إليه وقالت بأضطراب:

– لماذا لم تسألنى عن سبب عودتى اليوم بعد ما فعلته معى فى المرة السابقة؟

أبتسم بثقة وهو يجيبها:

– كان لدي يقين بعودتك

رفعت حاجبيها بدهشة وقالت:

– حديثك مغلف بثقة كبيرة لا أعرف مصدرها

قال بحبور واضح :

– مصدرى هو أحساسى فقط

تنهدت بعدم فهم وهى ترفع كتفيها وتخفضهما بتساؤل وقبل أن تتحدث لاحظت غياب مُهرها عن المكان التى كانت قد تركتها فيه ، ألتفتت إليه قائلة :

– أين مُهرتى .. تركتها هنا

ألتفت "جاسر" تجاه بيته وأطلق صفيراً طويلاً منغماً وبعد لحظات سمعت "ياسمينا" صهيلاً قوياً عالياً وظهر جواداً أسوداً قوياً يسرع نحو "جاسر" فى طاعة وتتبعه مُهرها البيضاء فى طاعة أكبر .. ربت "جاسر" على رأس حصانه الأدهم ونظر إلى "ياسمينا" وهو يشير إليه قائلا:

– أقدم لكِ صديقى "جسور"

أبتسمت مندهشة وهى تعقب متسائلة:

- "جسور"

وتقدمت بأتجاه مُهرتها وهى تربت على رأسها وتتحسسها برفق وتحدثها بعتاب قائلة:

- أين كنتِ يا "عنان "

أُعجب " جاسر" باسم مُهرتها ولكنه لم يعقب .. بل عاد إليه جموده وهو يقول بجدية:

- أنطلقى قبل أن يحل الظلام

أعتلت "ياسمينا" صهوة جوادها وتقدم "جاسر" منهما وقال وهو يمسح على رأس فرستها بحنان ويخرج قطع من السكر ويطعمها أياها فى فمها بحنو ثم رفع رأسه نحو "ياسمينا" قائلا:

- المرة القادمة سأصنع لكِ أختبار بسيط .. وإن إجتزتيه ببراعة.. فسوف أجعلك تطلقين السهام وأنتِ فوق تلك الحسناء

أتسعت عيناها بخوف وقالت بارتباك:

- مستحيل !!

تقدم منها وأمسك كفها بداخل قبضته فمالت للأمام بإتجاهه وثبت عينيه فى عينيها واضعاً قبضته الأخرى على صدره مشيراً إلى نفسه وهويقول بثقة وبطء:

- ثقى فى نفسك .. أنتِ مع "جاسر" .

تجمد المشهد للحظات بينما توجه "جسور" باتجاه " عنان" يداعب رأسها برأسه بحنان ويعدها بلقاء آخر قريب .. فلقد أعجبته !

****

الفصل السادس

حاولت " ياسمينا" أقتياد مُهرتها "عنان" خارج بستان "جاسر" مراراً وتكراراً ولكن "عنان" كانت تسير خطوات قليلة ثم تقف وتصهل بقوة رافضةً العودة كارهةً للقيود، راغبةً فى البقاء ، أبتسم " جاسر" وهو يعتلى صهوة جواده ويسير باتجاه "ياسمينا" ، ربت على رأس "عنان" مهدئاً قائلاً بتعاطف كبير :

– أهدئى أيتها المتهورة.. سيصحبك "جسور" حتى باب القصر

بدأت "عنان" فى الاستسلام للسرج بينما نظرت "ياسمينا" إليه متسائلة:

– هل ارتبطت به إلى هذا الحد ؟!

أومأ برأسه قائلاً بثقة وهو يتفرس فى ملامحها:

– وهو أيضاً لا يريد فراقها

أنطلقا الحبيبان "جسور" و "عنان" باتجاه القصر مستمتعان بالرفقة والصهيل الهامس ! ، وبعد أن قطعا نصف الطريق تقريباً لاحظا تجمع بعض الناس مكونين ما يشبه دائرة كبيرة يتوسطها مُهرج يقوم بإضحاكهم بحركات بهلوانية ، كل هذا كان مألوفاً بالنسبة لــ"ياسمينا" ولكن الذى لفت انتباهها توقف هذا المهرج عن فعل حركاته البهلوانية فجأة وأخرج من حقيبته الخشبية ملابس ملكية تشبه ملابس الملك المنصور وقام بارتدائها وسط ضحكات الناس وهمزاتهم ولمزاتهم وبدء المُهرج بتقليد والدها ، مشيته ، وحركاته ،وطريقة حديثه ،وطريقة تلويحه بيده ، ولكن بشكل مبالغ مما جعل الناس تتمايل على بعضها البعض من فرط ضحكاتهم وكأنهم سكارى ، شعرت "ياسمينا" بالإستياء والغيظ والتفتت إلى "جاسر" بعصبية وقالت بانفعال:

– كيف يحدث هذا فى المدينة .. لابد وأن يتم القبض على هؤلاء جميعاً

لم يجيبها وظل ناظراً أمامه باتجاه المُهرج فى هدوء شارداً ولسان حاله يقول" ما داموا قد أطلقوا عليه المهرجين والحثالة وسخروا منه.. فهى إذن بداية النهاية .. الأيام دُوَل يا جلالة الملك"

لكن "جسور" بخفة فى بطنه فبدء فى التحرك على مهل وتبعته "عنان" وما أن اجتازوا حلقة المُهرج حتى هتفت "ياسمينا" بضيق:

– سأبلغ أبى بما رأيت .. سأرفع الأمر إلى القاضى

أبتسم ولم يُعقب مما أغضبها قائلة :

– ألم تسمعنى ؟

قال دون أن ينظر إليها ببرود :

– فى يوم من الأيام كان هناك حاكماً آخر للبلاد .. سخر منه المهرجين والحثالة أيضاً وعندما رفع الأمر إلى القاضى قال أنها حرية التعبير وأنها نوع من أنواع الفن لا يجوز الحجر عليه

ثم ألقى نظرة خاطفة إليها وعاد لينظر أمامه من جديد قائلا:

– هل تعلمين من هو القاضى آن ذاك

ودون أن ينتظر أجابتها قال بصوت عميق:

– كان والدك!

رفعت حاجبيها بدهشة كبيرة وهتفت باستنكار:

– والدى كان قاضى .. كيف ذلك .. مستحيل !

لم يعرها أهتماماً مرة أخرى وقال وهو يتحرك عائداً فى الإتجاه المعاكس :

– سأنتظرك .. لا تتأخرى كثيراً

كانوا قد أشرفوا على أبواب القصر ، أنطلق "جاسر" عائداً إلى حديقته وتقدم حراس القصر وأمسكوا بسراج "عنان" واقتادوها بقوة إلى الداخل فلقد كانت تريد العودة وتتبع أثر "جسور" ، دلفت "ياسمينا" إلى مخدعها و"مودة" تتبعها فى قلق شديد وهى تنظر إلى ملامحها الشاردة المضطربة ، ساعدتها "مودة" فى تبديل ملابسها مسدلة شعرها كعادته وهى تقول بملامح متسائلة متعجبة:

– "مودة" هل كان والدى قاضياً حقاً ؟

عقدت "مودة" حاجبيها قلقاً واضطراباً فلقد كان السؤال مفاجأً لها وقالت بتردد وبطء:

– من أخبرك؟

زفرت "ياسمينا" بقوة وقالت بنفاذ صبر:

– "مودة" .. أجيبينى

أطرقت "مودة" برأسها وقالت متلعثمة:

– نعم كان قاضياً

تقلصت ملامح "ياسمينا" وقالت باستنكار:

– ألم يكن والدى أميراً ثم أصبح ملكاً ؟!

هزت "مودة" رأسها نفياً وهى تقول :

– لا

نظرت إليها "ياسمينا" ملياً وهى تقول بترقب:

– وكيف أصبح ملكاً أذن

صمتت "مودة" ولم تجب وملامحها تعلن أنها لن تفصح عن أكثر مما قالت فاستطردت "ياسمينا" بتساؤل أكبر:

– هل أمره الحاكم السابق وأرغمه على تولى أمور المملكة ؟

هزت "مودة" رأسها نفيًا مرة أخرى وهى تنصرف على الفور وتغادر مخدع الأميرة قبل أن توجه إليها المزيد من الأسئلة البديهية فى هذا الشأن وتركت "ياسمينا" وحيدة تعصفها الأفكار وتقذف بها على شاطىء البلاهة والغربة ، فلقد كانت تتصور أنها تعلم كل شىء عن والدها ومملكتها ولكنها اكتشفت أنها كانت بلهاء فهى لا تعلم حتى كيف أصبح والدها حاكماً ولكنها شعرت أن الأمر له علاقة ما بـــ "سيان" ولكن "سيان" كان صغيراً آن ذاك فكيف ذلك ؟ !

****

وقف "جاسر" بين صفوف جنود كتيبته التى هو قائدها.. كتيبة الرُماة وهو يعطى التعليمات أثناء تدريبهم والشمس تلقى بأشعتها الحارقة بينهم دون أكتراث لحرارتها التى تلسعهم ، تقدم أحد الجنود واخترق الصفوف حتى اقترب من "جاسر" على مهل وانحنى بأدب وهو يقول :

– قائد الجيوش يطلب حضورك الآن سيدى القائد

أومأ "جاسر" برأسه موافقاً وقال وهو يلتفت لجنوده :

– سأنتهى من التدريب وأذهب إليه

أضطربت ملامح الجندى وقال بارتباك:

– معذرةً سيدى القائد ولكنه يطلبك حالاً.. الآن

حدق به "جاسر" ملياً وهو يفكر فى تلك العجلة التى يطلبه بها قائد الجيوش وأنبأه حدسه بأن الأمر جد خطير ، أشار لجنود كتيبته أن يتابعوا التدريبات وانصرف إلى لقاء قائد الجيوش يتبعه الجندى بأدب ورهبة ،

دخل "جاسر" حجرة الأجتماعات الكبيرة والتى يجتمع فيها القادة لمناقشة أمور الحرب واستعداداتها والتى يتوسطها طاولة مستديرة الشكل كبيرة يلتف حولها عدة مقاعد يحتل كل قائد كتيبة مقعد منها بينما يتوسطهم قائد الجيوش ومن الواضح أنها كانت مناقشة هامة جدًا تدور بينهم ، ظهر ذلك لــ"جاسر" جلياً وخصيصاً عندما أشار له قائد الجيوش بجدية شديدة بأن يتخذ أحدى المقاعد والذى كان قبالته مباشرة ، أتخذ "جاسر" المقعد له مجلساً وهو يتفرس فى ملامح الجميع بترقب وحذر ، وضع قائد الجيوش مرفقية على الطاولة أمامه واستند إليهما وهو يجدل أصابع كفيه فى بعضهما البعض ناظراً إليه بعينين حادتين قائلاً بشكل مباشر وبصرامة :

– لقد اجتمعنا اليوم من أجل تجديد ولاؤنا للأمير "سيان " والقسم على نصرته ، وأنت يا قائد الرماة لم تقدم ولاءك للأمير من قبل وها قد حانت الفرصة أمامك فما هو رأيك ؟

أيقن "جاسر" بأن النهاية قد حانت وأنه لا طريق للمواربة بعد الآن فقد سُدت كل الطرق إليها ، نظر فى وجوه الجميع بعينين حادتين كالصقر وهو يحاول أن يقرأ وجوههم ليعلم من يوافق ومن يرفض فوجد الموافقة والخنوع فى عيون الجميع، قرر "جاسر" أن يدير الجلسة بطريقته الخاصة وهو يتكأ بقبضته على مقبض سيفه المعلق فى خاصرته وهو يستند بظهره بشموخ إلى ظهر المقعد موجهاً سؤالاً للجميع لخصه فى كلمة واحدة :

– والملك ؟!

نظر الجميع إلى بعضهما البعض ما بين غاضب ومنافق وخانع وسارت همهمات خفيضة فى القاعة بينما قال قائد الجيوش بعصبية غلفها التوتر:

– الأمير "سيان" هو ملك المستقبل

رفع "جاسر" كتفيه متصنعاً الدهشة وهو يتساءل مرة أخرى:

– وكيف ذلك والملك المنصور لازال حياً؟!

قاطعه أحد القادة بضربة على الطاولة بقبضته وهو يقول بغضب:

– الأمير"سيان" هو من يحكم المملكة بالفعل .. ولا حاجة لنا بالملك بعد اليوم

أوقفه قائد الجيوش بإشارة من يده وبنظرة صارمة ثم التفت إلى "جاسر" قائلا بنبرة يغلفها الهدوء :

– الملك سيتنازل للأمير "سيان" عن الحكم

أبتسم "جاسر" ساخراً وقال ببرود:

– إذن سأعطيه ولائى وولاء كتيبتى بعد أن يتوج ملكاً ويجلس على العرش بالفعل

صارت همهمات أخرى غاضبة وزفرات حارة من بعض القادة الذين أُجبروا على ذلك من قبل وشعروا أن "جاسر" ينطق بما أرادوه ولكنهم لا يملكون شجاعته تلك فى البوح بمكنون صدروهم ، توقفت تلك الهمهات فى الحال عندما هتف قائد الجيوش قائلاً:

– هذا أمر أيها القائد .. أُريد قسمك على نصرة الأمير وحمايته وإعلان ولاءك له الآن وعلى الفور أنت وكتيبتك كاملة

ظن الجميع أن "جاسر" سيستسلم أمام لهجة قائد الجيوش الآمره ولكنهم تفاجأوا به يقول:

– ولكن هذا مخالف لقانون المملكة .. لقد أعطيتم ولاءكم وقسمكم من قبل للملك فكيف تحنثون القسم

توترت القاعة بمن فيها حينما صرخ قائد الجيوش غاضباً:

– لا دخل لك بهذا ..أنت قائد كتيبة وليس لك دخل بسياسة المملكة

نهض "جاسر" قائلا بجمود:

– نعم أعلم هذا .. أنا جندي وقائد أحد الكتائب فى الجيوش .. لا علاقة لى بسياسة المملكة وكذلك جميع الجنود والقادة من المفترض أنهم أيضا مثلى لا علاقة لهم بسياسة المملكة .. تعلمنا هنا أننا نتدرب ونبذل الجهد للحفاظ على أراضى المملكة ومحاربة الأعداء الذين يحاولون احتلال أراضينا ولم نتعلم غير ذلك .. فلماذا الآن نتدخل فى شؤون المملكة وننصرف عن عملنا الحقيقى والوحيد وهو حماية حدود مملكتنا من العدو الخارجي ؟! .

نهض الجميع فى ترقب وقلق وقد أحتدت المناقشة وأصبحت حامية الوطيس واشتعلت النيران فى أعين الغاضبين موجهين حممها فى نظرات حادة إليه يريدون اقتلاعه من بينهم إقتلاعاً بينما أشار له قائد الجيوش بأبهامه محذراً وهو يقول مُهدداً:

– إختر الآن أيها القائد .. إما أن تُطيع الأوامر بلا نقاش أو سيكون لك شأناً آخر

رفع "جاسر " حاجبيه وهو يشد على مقبض سيفه قائلاً بتساؤل:

– بمعنى ؟

اقترب منه قائد الجيوش وقال بنفس نبرة التهديد والوعيد السابقة :

– أما أن تكون معنا .. وأما أن تكون علينا .. إختياران لا ثالث لهما

نظر له "جاسر" نظرة عميقة متحدية وهو يقول ببطء زاحف:

– أنا جندي سيدى قائد الجيوش .. لا شأن لى بالسياسة

زم قائد الجيوش شفتيه بقوة وهو يضغط فكيه بغضب حتى سُمع صوت أصطكاك أسنانه التى كادت أن تتحطم وبسط كفه وهو يقول آمراً :

– أعطنى نياشينك جميعاً الآن

أنتزع "جاسر" نياشينه المعلقة على كتفه ببرود ووضعها بيد قائد الجيوش وقد أبت عينيه إلا أن تطلق نظرات ساخرة للجميع لتشعرهم بخزيهم وعارهم الذى سيلاحقهم مدى الحياة من موقفهم المتخازل، هتف قائد الجيوش منادياً على الحراس من الجنود فى الخارج ، وعندما دلف الحراس إلى القاعة أشار إلى "جاسر" موجهاً حديثه لهم قائلا:

– ضعوه رهن الأعتقال حتى تتم محاكمته

خطى "جاسر" باتجاه الحراس المذهولين بإرادته ثم إلتفت إلى جميع القادة مشيعهم بنظرات يملؤها الأحتقار والسخرية قائلاً:

– ستخرجون من تلك القاعة لتعلمون أبنائكم كيفية تقسيم ضمائرهم وشرفهم وتوزيعها على أصحاب المصالح .. فلا تندهشوا حينما تجدوهم يقسمون مملكتهم فى يوم من الأيام ويبيعوها للأعداء .. فمن يبيع شرفه وضميره ؛ يبيع أرضه وبلاده

إنصرف بهدوء يتوسط الحراس وتركهم وكأن على رؤوسهم الطير وقد خر بعضهم جالسين إلى مقاعدهم واضعين رؤوسهم بين أيديهم يحثون عليها تراب العارالوهمي ، ولكن لا رجوع الآن

****

أندفع "سيان" إلى مجلس أبيه مرتدياً قناع الغضب والغيرة وأخذ يهتف بحنق :

– مولاى الملك .

نظر له والده متعجباً وقال بقلق:

– ماذا دهاك يا "سيان"

تابع "سيان" حركاته المسرحية وهو يقول غاضباً:

– لا أتحمل وجود أختى "ياسمينا" بصحبة ذلك الرجل يا أبى.. ينفرد بها كل تلك الأوقات بمفردهم والأمس عادت إلى القصر بصحبته وقد ذكر لى الأمير "نوار" أنه رآهما يتضاحكان فى الطريق إلى القصر ويتمايلان فوق أحصنتهما بشكل مُريب يا مولاى

واقترب أكثر من والده وقال بصوت خفيض خبيث وبنظرة ذات مغزى :

– لقد بدء الناس فى التحدث بشأنهما يا مولاى

حك الملك المنصور ذقنه بتفكير عميق وقال باهتمام:

– هل أنت منزعج إلى هذا الحد يا ولدى؟

عقد "سيان" حاجبيه وهو يؤدى دوره بحرفية كبيرة قائلاً:

– نعم يا والدى ..فـ"ياسمينا" لازالت صغيرة ورقيقة ومن السهل أن تنخدع ويتلاعب بها أحدهم

قال الملك بتفكير وتردد:

– ولكن يا "سيان" ...

قاطعه دخول "ياسمينا" فى تلك اللحظة بردائها الأبيض الملائكى والذى يتعارض مع قسمات وجهها القلقة المضطربة وهى تقترب من مجلس والدها الذى ما أن رآها حتى ابتسم وقربها منه بترحاب وحبور وأجلسها بجواره وقد قرأ الحيرة والقلق فى وجهها وهو يسألها عن سبب قدومها الآن فقالت :

– والدى .. يتملكني سؤال أريد أجابته منك .. أرجوك

ضيق "سيان" حدقتاه بتركيز بينما رفع الملك حاجبيه وهو يقول:

– وماهو ؟

فركت كفيها متوترة وقالت بتردد:

– هل حقاً كنت قاضياً فى يوم من الأيام ؟!

تبادل الملك النظرات الحذرة مع "سيان" وهو يقول ببطء:

– من أنبأكى بهذا ؟!

قالت بتردد أكبر:

– القائد "جاسر"

نظر له "سيان" نظرات تؤكد له أنه كان على حق فى أمر إبعادها عن "جاسر" فهاهو قد بدء يتلاعب بعقلها ويخبرها بما لا يستوجب أن تعرفه فبادله الملك نظراته مؤكدا أنه اقتنع بكلامه وبأنه كان محقاً فى ذلك ويطلب منه التدخل فى الحديث لإنقاذ الموقف .

فقال لها "سيان" على الفور:

– سمو الأميرة الجميلة لا تجهدى رأسك الجميل فى شئون ليس من ورائها طائل .. إهتمى بمجالس الأميرات فقط

هتفت حانقة :

– أنا أتحدث إلى الملك

قال "سيان" ببرود وهو ينظر إلى الملك نظرات حزينة مصطنعة:

– أخشى أن يكون الملك قاسياً معكِ يا "ياسمينا"

ألتقط الملك طرف الخيط من "سيان" ونهض بغضب وهو يبتعد عنها هاتفاً بقسوة:

– لا تتدخلى فى شئون الملك يا "ياسمينا"

حاولت أن تتحدث ثانيةً ولكنه قاطعها بغضب مماثل :

– هيا انصرفى حالاً

أحمرت وجنتاها حنقاً وغضباً وبذلت مجهوداً مضنياً وهى تقاتل دمعة ضعيفة تريد أن تفر إلى وجنتيها وأشاحت وجهها وانصرفت غاضبة فى الحال

أقترب "سيان" من والده ووضع كفه على كتفه متصنعاً الحزن والأمتنان وهو يقول مواسياً ومشجعاً:

– هذا افضل لها يا والدى .. هذا أفضل بكثير

خرج "سيان" من عند الملك متجهاً فى خطوات سريعة للخارج وما أن خطى بإتجاه الحديقة حتى رأى قائد الحرس واقفاً ينتظره فأشار له بيده أن يقترب ، إقترب الرجل على الفور وهمس فى أذنه :

– أعتقلوه يا مولاى

هز "سيان" رأسه بغضب وقال وهو يخطو خطوات سريعة :

– جميعكم حمقى

حدق به قائد الحرس ببلاهة فتوقف "سيان" فجأة عن السير ونظر نظرة يملؤها الكراهية وقال آمراً وهو يستند إلى شجرة كبيرة وضخمة تتوسط الحديقة :

– أرسل إلى قائد الجيوش ... "جاسر" هذا خطر وإن تركناه ستكون العواقب وخيمة ولن نستفيد من اعتقاله فى شيء .. خصيصاً ونحن مقبلين على النهاية.

يبدو أن قائد الحرس لم يفهم مقصد "سيان" فقال بعدم فهم :

– ولكن قائد الجيوش أعلن أنه سيحاكمه يا مولاى بتهمة الخيانة

مط "سيان" شفتيه بازدراء وقال آمراً:

– أرسل إلى القاضى بأن تتم المحاكمة بعد أيام قلائل وقل له بأمر مباشر مني أن يحكم عليه بالإعدام

أطلت نظرة شامتة حاقدة من عينيى قائد الحرس وهو ينصرف خلف ولى نعمته تابعاً له فى سعادة كبيرة بينما لم يلاحظا من كان يقف على مقربة منهما خلف الشجرة ويضع يديه على فمه ليكتم شهقته ولوعته وفزعه هامسة " سيقتلونك يا "جاسر" .. لقد صدر الحُكم قبل المحاكمة ولابد من تنفيذه" .

****

الفصل السابع

خرجت "مودة" من القصر ليلاً تتوارى فى الظلام الذى ساعدها على ذلك وغطى القمر بردائة القاتم ليعطيها فرصة للأختباء عن الأعين إلا من عينين ينيتين أخذتا تتبعاها بحرص وحذر وفضول ، بمجرد خروجها من القصر ابتعدت بخطوات واسعة تستنفذ منها أنفاسها المتلاحقة بتوتر وقلق ، تشعر أن أحداً ما خلفها ولكنها لاتستطيع اختراق حاجب الظلام بعينيها الضعفتين ولكنها أصرت على متابعة السير الحثيث ، تقف تارة تلتقط أنفاسها وتملأ صدرها بنسيم الليل الهادىء ثم تنطلق بثبات وسرعة فى طريقها ووجهتها التى قصدتها منذ البداية حتى وصلت إلى مشارف بيوتات العامة فى المدينة ووجدت من كان ينتظرها هناك، وضعت كفيها على كتفيه وهى تتأمل ملامحه قائلة بلهفة:

– كيف نجوت يا ولدى ؟

أمسك كفيها بحنان وقال بصوت خفيض:

– مازال لدينا بعض الشرفاء يا "مودة" لا تقلقى

ثم أخذها من يدها وأتجها إلى أحد الأركان المظلمة ، ترجلت "ياسمينا" من فوق جوادها وهى تنظر فى الأتجاه المظلم الذى أختفت فيه "مودة" واقتربت منه ولكنها لم تجد أحداً كما لو كانت تبخرت ولم يبقى منها أثر يدل عليها ، وقفت قليلاً تنظر حولها ، أنها المرة الأولى التى تقترب فيها من بيوت العامة ، فقد كانت تلح كثيراً على والدها أن تذهب إليها ولكنه كان يرفض اقترابها من عامة الشعب ويحذرها من مغبة اقتحام حياتهم ، وقفت كثيراً حتى شعرت باليأس من عودة "مودة" فآثرت الرجوع وحدها ، أعتلت صهوة جوادها وعادت إلى القصر متخفية كما خرجت منه متخفية ، أنتظرت فى مخدعها فبالتأكيد ستعود "مودة" وهذه المرة لن تتركها حتى تعلم منها كل شىء ، لن تصبح بلهاء متعثرة مرة أخرى آن لشمس الحقيقة أن تشرق فى عقلها ، حان وقت فك أسر أسئلتها الحائرة محطمةً قيودها ، تضرب بجناحيها مندفعة إلى سماء المعرفة ، لن تعود إلى قفصها الذهبى الملون مرة أخرى .

أنتظرت طويلاً حتى غلبيها جفنيها وخارت قواهما وذهبت فى رحلة قصيرة إلى النوم وحواسها جميعاً متأهبة فى غير ملل منتظرة مربيتها المخلصة

****

ومع بزوخ شمس اليوم التالى أستيقظ "سيان" ووقف يرتدى ملابسه أمام المرآة بمساعدة خادمة المقرب ، دخل خادماً آخر ووقف أمام الباب وهو ينحنى ويثنى جزعه بشكل مبالغ فيه قائلاً بأدب:

– مولاى الأمير .. قائد الحرس يطلب مقابلتك فى الحال

عقد "سيان" حاجبيه باهتمام وهو يشير بيده للخادم قائلاً:

– دعه ينتظرنى فى الحديقة

أنصرف الخادم دون أن يعتدل من أنحاءته حتى خرج وأغلق الباب خلفه ، نظر "سيان" إلى هيئته نظرة أخيرة وسريعة فى المرآة ثم انصرف متوجهاً للحديقة للقاء قائد الحرس ولكنه لم يجده وحده بل وجد قائد الجيوش قد أنضم له وهما ينتظراه بقلق وترقب ، بمجرد أن ظهر

"سيان " أمامها اضطربا قليلاً وتبادلا النظرات مما اشعره بأن الأمر جلل ، وقف أمامها بنظراته المتفرسة فيهما وهو يقول ببطء:

– ما الأمر ؟

أطلق قائد الجيوش قذيفته المدوية قائلاً:

– لقد هرب "جاسر" يا مولاى .. ساعده أحدهم

ساد الصمت قليلاً وهما ينظران إلى قسماته الباردة التى عادةً ما يعقبها انفجار بركانى كبير يصلهما منه بعض شظاياه وحممه المتأججة وهنا قرر قائد الحرس أن يطلق قذيفته هو الآخر قائلاً:

– أعتقد يا مولاى أن الأميرة "ياسمينا" لها علاقة بالأمر فلقد رأيتها عائدة ليلاً إلى القصر متخفية فى الظلام

كتم "سيان" غضبه وهو يسمع صوت الملك المنصور يقترب منهما وقال سريعاً كاظماً غيظه

– لو كانت الظروف مواتية لأمرت بقطع رأسيكما أيها الحمقى

أبتلع القائدان ريقهما بصعوبة بينما وضع قائد الحرس أصابعه على رقبته يتحسسها وهو ينظر إلى "سيان" برعب حقيقى

.

أقترب الملك منهما بابتسامة كبيرة وهو يلقى عليهم التحية ثم وضع ذراعه على كتف ولده ناظراً إلى قسماته المتوترة الغاضبة متسائلاً:

– ماذا بك يا ولدى ؟

قال "سيان" وهو يشير إلى قائد الجيوش بغضب:

– لقد اكتشف قائد الجيوش جاسوس بين صفوفه يا مولاى

عقد الملك حاجبيه وسرت قشعريرة فى جسده وهو يكرر:

– جاسوس!

أومأ "سيان" برأسه وهو يقول :

– نعم يا مولاى ولكن هذه ليست المشكلة الوحيدة

زاغت عينى الملك بينهم بعدم فهم وهو يقول بنبرة غلب عليها العصبية والتوتر :

– أية مشكلة ؟! .. وهل قبضتم عليه أم لا؟

كان قائد الجيوش سيبدء فى الحديث ولكنه توقف عندما لمح أشارة ما فى عينى "سيان" تأمره بترك الأمر له فتوقف فى الحال وترك المجال له فى الحديث .

بدء "سيان" فى استخدام مواهبه التمثيلية ومال باتجاه أذن والده وهو يقول بصوت خفيض:

– مولاى .. الأمر يتعلق بالأميرة" ياسمينا" لابد أن نتحدث وحدنا

وافقة والده وسار بجواره قليلاً مبتعداً عن القائدين وهنا قال "سيان" بتأثر واضح:

– مولاى.. أنا مقدر صغر سن الأميرة "ياسمينا" ولكن ليس إلى هذا الحد ... ليس إلى حد أن .. أن

وبدء يتصنع التردد وهو يقول :

– أن تعشق جاسوساً وتساعده على الهرب بعد أن تم القبض عليه

ألتفت الملك إليه بجسده كله دفعة واحدة وقد تقلصت ملامح وجهه و زاغت نظراته وهو يقول نافياً غير مصدق:

- مستحيل .. "ياسمينا" لا تفعل هذا ابداً

مط "سيان" شفتيه وهو يقول بأسى :

- مع الأسف يا مولاى الخبر صحيح .. ولا عجب فى ذلك فلقد تركناها فى صحبته وحدها وقتاً طويلاً

أتسعت عينيى الملك وهو يردد بشرود:

- أتقصد ... أمير الرُماة !!

أرسل "سيان" تنهيدة طويلة وهو يخطف النظرات الجانبية إلى الملك قائلاً:

- نعم يا مولاى .. إنه هو.. ولقد اكتشف قائد الجيوش خداعه واعتقله ولكنه استطاع الهرب بمساعدة الأميرة .. وإن لم تصدق حديثى يا مولاى إسألها أين كانت بالأمس ولماذا خرجت متخفية من القصر فى جنح الظلام

شعر الملك أن صفعة ما نزلت مدوية على رأسه وبدء يشعر بالدوران وهو مازال يردد مذهولاً :

- مستحيل .. مستحيل

****

أمسكت "ياسمينا" ذراع "مودة" وهى تلفها إليها وفى مواجهتها تماماً ونظرت إلى عينيها حانقة وهى تقول بإصرار:

- لا تراوغى يا "مودة" .. لقد رأيتك تتحدثين إليه فى الظلام قبل أن تختفيا معاً

ثم فركت كفيها وهى تقول بشك :

- لقد شككت بك منذ الأمس، منذ أن رأيتك تخفين رسالة ما خلف ظهرك حينما رأيتينى أمامك فجأة.. وخصيصاً عندما كنتِ مُصرة أن أنام باكراً ورفضتى المكوث معى فى المخدع .

حاولت "مودة" المراوغة أكثر ولكنها لم تفلح فهى تعلم "ياسمينا" تمام المعرفة ،ولكن كيف تفشى السر!، قطعت عليها "ياسمينا " تسلسل أفكارها وقالت بنبرة حازمة:

- إن لم تخبرينى أنا .. فسوف أخبر الملك بكل ما رأيت

وهتفت بغضب شديد:

– هيا تكلمى

أبتلعت "مودة "ريقها بصعوبة وقالت بتلعثم:

– هذا الرجل كان .. كان "جاسر"

عقدت "ياسمينا" بين حاجبيها وشعرت أن الدماء تغلى بداخل رأسها وهتفت :

– ولماذا تقابلينه فى الظلام .. !

جذبتها من مرفقها بغضب وهى تصرخ:

– ماذا يحدث بينك وبينه يا "مودة" .. تكلمى الآن

شعرت "مودة" بالأهانة فى تلميحات "ياسمينا " فقالت بشموخ وكبرياء

– سمو الأميرة لا تنسى أننى مُربيتك ومنذ فترة وجيزة كنتِ تضعينى فى مقام والدتك

هدأت "ياسمينا" قليلاً ثم قالت بهدوء عاصف:

– إذن أخبرينى .. ماذا يحدث

عزمت "مودة " بأخبارها ببعض ما تعرفه وقصت عليها الحديث الذى سمعته رغماً عنها عند الشجرة الضخمة فى الحديقة والرسالة الصغيرة التى أرسلها لها "جاسر" يخبرها فيه بموعد اللقاء فى الليل

أتسعت عينى "ياسمينا" واضطربت ضربات قلبها بقوة وهى تقول :

– ولماذا يريدون التخلص منه

ثم التفتت إلى "مودة" متسائلة:

– ولماذا أختارك "جاسر" ليرسل لك برسالة يريد فيها مقابلتك ويطلعك على مكانه الذى يختبا به ؟!

أطرقت "مودة" برأسها وهى تقول بثبات:

– لم يسمح لى بعد أن أخبرك بكل شىء يا "ياسمينا" لقد أخبرتك بما أستطيع البوح به فقط

نظرت "ياسمينا" فى عينيها تحاول سبر أغوارها بصمت ثم قالت بتصميم كبير:

– أريد رؤيته

رفعت "مودة " عينيها بدهشة وقبل أن تنفرج شفتاها عن أجابة شافية دخل الملك وقد ارتسمت على وجهه جُل علامات الغضب والحنق وبصحبته "سيان" هاتفاً بها:

– هل حقاً تسللتى بالأمس فى جنح الظلام يا "ياسمينا"

أرتبكت "ياسمينا" وتلعثمت وهى ترقب نظرات الحقد والشماتة فى عينيى أخيها الصامت ، لم ينتظر الملك كثيراً وصرخ بوجهها:

– أجيبينى .. هل ساعدتى "جاسر" على الهرب ؟ .. هل ساعدتى الخائن الجاسوس على الهرب من العدالة

هزت رأسها بقوة وهى تلوح بكفيها نافيةً ما يوجهه لها من اتهامات قائلة:

– لا لم يحدث .. أنا لم أفعل أى شيء مما تقول يا والدى

صرخ بوجهها مرة أخرى :

– إذن أخبرينى أين كنتِ خارج القصر فى جنح الظلام

ابتلعت ريقها لا تجد أجابة تقولها ولا تريد أن تفضح سر ما عرفت للتو ، "مودة" تدخلت فى الوقت المناسب قائلة بثبات:

– خرجنا معاً يا مولاى

ألتفتت إليها "ياسمينا" بحنق تثنيها بعينيها عن فضح سر "جاسر" بينما رمقها "سيان" بنظرات متفحصة وهى تتابع قائلة:

– كانت الأميرة تبكى دون سبب شاعرة بغصة فى قلبها بدون داعى أو سبب تعرفه وليس لديها رغبة فى النوم.. فاقترحت عليها نزهة خارج القصر لعلها تعود إلى طبيعتها وتتحسن حالتها

قال "سيان" بنظرات خبيثة:

– نزهة فى جنح الظلام يا "مودة" !

نظرت فى عينيه بثقة وهى تجيب:

– نعم يا سمو الأمير هذا ما حدث

شبك الملك أصابع كفيه وهو ينظر إليهما بشك وصمت وبعد لحظات حرر أصابعه وقال لها محذراً وهو يشير بإبهامه بتهديد :

– لن تخرجى من القصر بعد الآن ..لا إلى التنزه ولا إلى أى مكان آخر .. أتفهمين ؟

أومأت "ياسمينا" برأسها موافقةً هى تتنفس براحة و تقول :

– نعم

خرج الملك من مخدعها مندفعاً للخارج بغضب وعصبية شديدة وتبعه "سيان" وهو يُلقى عليها نظرة ماكرة ساخرة والخادمة تغلق الباب خلفهما وتنصرف

خرج الملك إلى مجلسه الخاص وهو يستشيط غضباً و "سيان "يقول بانفعال:

– لماذ لم تستجوبها يا مولاى.. أنها تعرف مكان الجاسوس

هتف الملك بحدة وهو يلتفت إليه:

– هل تريد أن تستجوب الأميرة يا "سيان" .. هذا لن يحدث أبدًا

قال "سيان" معترضاً :

– مولاى ..

قاطعه الملك بانفعال مماثل:

– لن تفعل هذا فى حياتى أبداً ..أنتهى الأمر إلى هذا الحد ..هيا أخرج من هنا .. أخرج

خرج "سيان" غاضباً وهو يردد بداخله:

– حياتك هذه لن تستمر طويلاً يا مولاى الملك .. أعدك !

خرج من المجلس فوجد قائد الحرس ينتظره ،أقترب منه وقال بخفوت آمراً :

– ضع عينيك على الأميرة هى ومُربيتها ليل نهار فأنا على يقين أنها ستخرج إليه مرة أخرى ..

ثم أستطرد وقد ملأ الشر والحقد عينيه وهو يقول بصوت يشبه الفحيح :

– وعندما تفعل ذلك ستكون قد خطت بيدها نهايتها بجوار نهايته .. وبدمائهما معاً .. !

****

بمجرد أن أطمأنت" ياسمينا" وتأكدت من ابتعاد أخيها ووالدها التفتت إلى "مودة" قائلة بخفوت وتصميم :

– لابد أن أخرج ..أريد أن أتحدث معه ... أريد أن أعرف كل شيء

أقتربت منها "مودة" قائلة بحرص:

– سمو الأميرة.. الأمر خطير.. لا تُعرضى حياتك للخطر

كادت أن تهتف ثم أخفضت صوتها مرة أخرى وهى تزم شفتاها قائلة بجدية:

– أفعلى ما آمرك به .. أريد أن أراه فى أقرب وقت

شعرت "مودة" أنها تشتم نسائم الخطر وهى تدنو منهما وترقبهما لتنقض عليهما مباغتةً .. ولكنها لا تستطيع أن تكتم الأمر عليها أكثر من ذلك والخطر ليس خارج القصر فقط .. فبمجرد وقوفها بجانب "ياسمينا" ودفاعها عنها تيقنت أن "سيان" لن يتركها وفى كل الأحوال قد اقتربت النهاية لا محالة، فقالت بشرود وهى تنظر للسماء خارج الشرفة:

– سأطلب منه موعداً للقائك .

****

الفصل الثامن

مضت عدة أيام لم تتلقى فيهم "ياسمينا" أجابة شافية على طلبها بلقاء

" جاسر" وفى كل مرة كانت تكرر سؤالها لم تكن تأتيها إلا أجابة واحدة:

– لقد أبلغته بطلبك وليس بيدينا سوى الأنتظار يا سمو الأميرة

فى تلك الأيام كان "سيان" يحاول الظهور بمظهر التخاذل فى البحث عن "جاسر" ، وعدم اهتمامه به ، وبالتالى كف قائد الحرس والشرطة عن البحث عنه وأصبح الحال كالسطح الراكد تماماً .. نراه هادئاً ولا نعلم الذى يعتمل بداخله من غليان .. شعرت "ياسمينا"أن الأجواء هدأت حولها وأصبحت لا ترى أخيها سوى بالمصادفة متجنباً حتى النظر إليها ، ومع الوقت أصبح لها حرية الحركة داخل أو خارج القصر دون أن يشعرها أحدهم أنه يتلصص عليها، أعتقدت "ياسمينا" أنه الوقت المناسب وبالتالى شعرت" مودة" بنفس الشيء ولكن خبرتها فى الحياة كانت تشعر أن هناك شيئاً يُدبر فى الخفاء ولكن لا دليل عليه أمام ناظريها ، وبعد ثلاثة أيام أخرى جاءت رسالة العبور إلى "جاسر" .. أبتسمت "مودة" وهى تطوى الرسالة الصغيرة بداخل راحة يدها وهى تلتفت إلى الأميرة قائلة:

– غداً مساءاً يا سمو الأميرة

سرت رعشة بجسدها وهى تبتلع ريقها بصعوبة قائلة:

– غداً؟

ابتسمت "مودة" وهى تومىء برأسها قائلة باضطراب يغلفه الحبور:

– رغم قلقى وما يعتمل بصدرى إلا أننى سعيدة بلقاءه مرة أخرى .. أفتقدته كثيراً

عقدت "ياسمينا" ساعديها فوق صدرها وهى تستند بظهرها إلى ظهر مقعدها وتضيق عينيها متفحصة قسمات وجه "مودة" ، نظرت لها "مودة " وإلى تفحصها لها وابتسمت ابتسامة واسعة مما أجبر"ياسمينا" على التحدث بحنق قائلة:

– لماذا تبتسمين هكذا ؟

حركت "مودة" رأسها وهى ترفع كتفيها بمرح وتنهض واقفة وهى تستعد للأنصراف قائلة:

– لا شيء

أنصرفت وابتسامة أكبر من أختها تحتل ثغرها ، زفرت "ياسمينا" بقوة وهى تنهض وتقترب من الشرفة ناظرةً للسماء البعيدة القريبة تتضارب أمواج الأفكار بداخلها ، تتصارع وتتسابق إلى شاطىء الغد لعلها تجد إجابات شافيةً فى مساءٍ تنتظره بكل شغف .

****

وقف"جاسر" بداخل الخان متخفياً بالرداء المخصص للبائعين الذين يساعدون صاحب الخان فى بيع أعشابه لأصحاب الأمراض والأوجاع القاصدين له لعلهم يجدوا فى العُشب وبذوره ما لم يجدوه فى العقاقير

، كان "جاسر" مُجِد فى عمله رغم تربصه بكل من يدخل الخان مراقباً له بطرف خفى ، وبعد انتصاف النهار جلس جميع من بالخان يتقاسمون الطعام ويخلدون إلى راحة خفيفة تزيل عن كاهلهم عبء العمل المتواصل ووقوفهم على أقدامهم ساعات طويلة .

ولكن الراحة لم تدم كثيراً ، أندفع الجميع للخارج فور سماعهم صوت صرخات بعض من السيدات فوجدوا رجال الشرطة يقيدون رجل مُسن بالسلاسل ويقتادونه أمامهم بوحشية كبيرة بينما تصرخ زوجته وابنته تستغيثان بكل من يمر بجوارهما لعل هناك أحد الشرفاء من يؤثر التدخل لإنقاذ هذا الكهل الكبير .

تقدم "جاسر" خطوات خارج الخان بغضب شديد ولكن صاحب الخان وضع يده أمامه ونظر له بجدية وهو يهمس فى أذنه :

– ستفضح نفسك أيها المتهور

زم "جاسر" شفتيه وهو ينظر تجاه المرأتان الصارختان وهو يتمتم بغضب:

– ألا ترى ما يحدث هل سنتركهم يأخذون الشيخ المُسن هكذا من بيننا ؟

دفعه صاحب الخان للداخل ودخل خلفه وهو يقول بحنق وبنبرة زاجرة:

– إذن تعرضنا جميعاً للخطر وتفسد كل شيء ؟

قبض "جاسر" على إحدى القواطى والتى تمتلىء بالأعشاب أمامه وشد قبضته عليها بغضب حتى كادت أن تنكسر تحت وطأة الضغط وهو يقول بإستنكار:

– إلى متى سنصبر ... إلى متى ؟

وضع الرجل يده على كتفه وهو يقول بثبات وثقة:

– قريباً يا ولدى ..قريباً .. لا تتعجل

هدأت الصرخات وتحولت إلى بكاء شديد ثم إلى نحيب خفيض وشهقات متواصلة والجميع ينظر إليهما بأسف وحسرة وألم وضعف ، وفجأة قطع تلك المشاعر صوت رجل يخرج من خانه متهكماً وهو يقول ببرود موجهاً حديثه للنساء:

– لماذا تصرخن وتبكين هكذا.. فما حدث أمرا طبيعى ..أنتم من تأخرتم فى دفع الضرائب المفروضة عليكم

نهضت السيدة الكبيرة وهى تكفكف دمعها قائلة بانهيار :

– ومن أين لنا بالمال .. نحن نبيع الخضروات فتكفينا لطعامنا بالكاد.. من أين لنا بدفع تلك الضرائب الظالمة

نظر لها الرجل مهدداً وهو يقول بسخرية:

– ماذا .. ظالمة .. هل تقصدين الضرائب أم تقصدين من فرضها ؟

نهضت الفتاة سريعاً وهى تجذب والدتها إليها تخشى فقدها كما فقدت أبيها وهى تقول له :

– لالا يا سيدى هى لا تقصد شىء صدقنى

دفعت الأم يد ابنتها وهى تصيح بغضب:

– لا بل أقصد .. الضرائب ظالمة ومن وضعها ظالم

ثم نظرت إلى الجميع وهم يحدقون بها خوفاً عليها ولكن ما حوت صدورهم أكبر فجزاء الإعتراض على أوامر الحاكم معروفة مسبقاً فما بالكم بمن يتهمه بالظلم أيضاً ، زاد الكيل وفاض جرحها وهى ترى بعينيها فقد زوجها ورب أسرتها يؤخذ أمام عينيها وهى تعلم أنه لا رجوع له ، فلقد عصى أوامر الملك وهتفت فى الجميع :

– نحن نجنى ثمار تخلينا عن الحاكم الصالح .. أتذكرونه ؟

إنتفض الجميع ودخل كل رجل إلى خانه وأغلقها خلفه خشية الوقوع فى جريمة ذكر الملك الصالح، فهى جريمة لها عقوبة قصوى ربما تصل إلى الإعدام ، وهرب المارة من أمامها وكأنها تنذرهم بصاعقة ستنقض عليهم من حيث لا يعلمون بينما نظر الرجل المتهكم إليها وهو يقول ساخراً:

– سأتكتم أمرك فقط من أجل فتاتك الصغيرة تلك

جذبت الفتاة والدها مرة أخرى وهى تبكى وتقول متوسلة:

– أرجوكِ يا أماه لم يعد لى سواكِ ..أصمتى

هدأت الأم قليلاً وهى تمد يدها لتجفف دمع ابنتها وهى تأخذها بين ذراعيها وتربت على ظهرها وهى تقول بلوعة:

– لقد صمتنا كثيراً يا ابنتى حتى وصل بنا الحال إلى ما هو عليه الآن لا تفزعى هكذا فلن يحدث أكثر مما حدث

****

وقف "جاسر" يعيد ترتيب القواطى الصغيرة التى تناثرت بين يديه فى الأرفف بتناسق بينما تقدم منه ربَ عمله مربتاً على ظهره وهو يقول:

– هيا يا ولدى لقد حان وقت مغادرتك لقد بدأت الشمس فى الغروب

ألقى عليه "جاسر" نظرة سريعة وهو يضع ما فى يديه مكانه ويرسل تنهيدة طويلة وهو يعيد هندمة ملابسه مستعداً للقاءه المرتقب .

إنتظر قليلاً ثم خرج قاصداً منزل "مودة" المهجور القريب من حديقته والذى يسكنه منذ أن استطاع الهرب قبل محاكمته الزائفة الهزلية

****

أقترب قائد الحرس حتى وقف أمام "سيان" الذى كان يجلس فى مقعده الوثير بعظمة وكبرياء ، أستشعر بعض الخوف قبل أن يقول وهو مطأطأ الرأس:

– مولاى لقد أعتقلنا اليوم أحد بائعين الخضروات وفعلنا كما أمرتنا وأوحينا لزوجته وابنته أنه أمر ملكى وأن الملك المنصور أصدر إلينا فرمانا بالقبض على كل من يمتنع عن دفع الضرائب وإن كان من

المعدومين والفقراء

أومأ "سيان" برأسه وهو يقول برضا :

– عظيم

اضطربت خلجات وجه قائد الحرس وهو يقول متلعثماً :

– ولكن يا مولاى ..

ضاقت حدقتا "سيان" وهو يقول متبرماً:

– تكلم يا قائد الحرس ماذا لديك

ابتلع القائد ريقه قبل أن يقول بتردد:

– أخبرنا جاسوسنا هناك أن زوجة الرجل لم تصب غضبها على أوامر الملك المنصور وفقط كما كنا نريد وإنما ..وأنما ذكرت الملك الصالح بخير وقالت أنهم قد ظلموه فيما مضى و..

قاطعه "سيان" بغضب وهو يضرب ركبته بقبضته هاتفاً:

– ماذا .. الصالح !!

نكس القائد رأسه وقد اصفر وجهه وهو يقول مؤكداً:

– نعم يا مولاى

أستند "سيان" إلى ظهر مقعده وهو يقول بشرود غاضب :

– وما الذى ذكرهم بالملك الصالح الآن ؟

– البصاصين فى كل مكان يا مولاى أخبرونى بأن هناك مجموعات من الفتيان يجلسون إلى الناس فى الأسواق والتجمعات ويتحدثون معهم بشأن الملك الصالح ويذكرونهم بمناقبه وبأنه قد ظُلم وأن ما حدث كانت مؤامرة عليه ويدللون على حديثهم بأن الأوضاع لم تتحسن بعد سجن الملك الصالح بل على العكس لقد ساءت و ..

قاطعه "سيان" مرة أخرى هادراً:

– كيف تسمح الشرطة بالتجمعات ..وكيف لم يتم القبض عليهم فى الحال أيها الأغبياء

– إنهم يختفون فى لمح البصر يا مولاى ولم نستطع بعد تحديد هويتهم والمشكلة الكبرى التى تواجهنا أن العامة تجتهد فى أخفائهم ويرفضون الأفصاح عنهم .

نهض "سيان" واقفاً من مقامه وهو يضرب قبضته اليسرى فى قبضته اليمنى والشرر يتطاير من عينيه قائلاً بصوت بركان خامد يستعد للفوران:

– هذا سيفسد كل شيء .. هذا ينسف مُخططى بالكامل فبدلاً من أن أجعل الناس تكره الملك المنصور وتسعى إلى التخلص منه جعلتهم يتذكرون الملك الصالح ويتعاطفون معه وهذا خطر داهم يا قائد الحرس

صمت قليلاً بتفكير عميق قبل أن يقول :

– هؤلاء الفتيان لا يعملون وحدهم ..هناك قائد يحركهم ويوجههم

اتعلت ذاكرته فجأة بالحديث الذى قصه عليه قائد الجيوش والذى دار بينه وبين جاسر قبيل القبض عليه ، مما أثار جنونه وقد عرف القائد فهتفت بحنق:

– كيف لم أنتبه !!

ثم لمعت عينيه بانفجار شيطانى مستطرداً:

– "جاسر" أنه هو .. هو من يحرك هؤلاء الفتيان هو من يُقلب العامة علينا .. هو من يسعى لنسف مُلكنا الذى ثُبتت أركانه منذ عشر سنوات كاملة

صمت مرة أخرى وقائد الحرس ينتظر الأوامر بترقب شديد إلى أن أشار له "سيان" بسبابته آمراً:

– أريد رأس "جاسر" هذا .. اليوم يا قائد الحرس

– ولكنه اليوم لن يكون وحده كما تعلم يا سمو الأمير !!

ضحك "سيان" فجأة وهو يعقد ذراعيه فوق صدره قائلاً:

– الملك "سيان" أيها القائد

أتسعت عينى قائد الحرس مندهشاً فلم يكن يتوقع أن تأتى النهاية بتلك السرعة ثم ماذا سيُفعل بالملك المنصور بعد الآن ؟ ! .. قطع عليه "سيان" أفكاره وهو يهتف آمراً:

– نفذ ما أمرتك به أيها القائد ..أريد رأسه ورأس كل من ستجدهم معه

رفع القائد رأسه ينظر إلى "سيان" خوفاً واضطراباً عندما سمعه يستطرد بحدة:

– ثم عُد إلى هنا لتضع الملك المنصور بجوار غريمه السابق

*****

حل المساء وبدء الظلام ينبش مخالبه فى السماء ويسيطر عليها بعتمته لولا ظهور النجوم الصغيرة مشاكسة ومدافعة فارضةً وجودها فى ثوبها المتلألئ اللامع ، دلفت "ياسمينا" من الباب الخشبى المتهالك بثوبها الأبيض الملائكى الفضفاض يعلوه وشاحاً مثبتاً بدقة وذوق فوق كتفيها بصحبة " مودة" التى أوصدت الباب خلفها بحذر وهى تنظر حولها متفحصة للمكان ثم أشارت بيمينها إلى "ياسمينا " ترشدها إلى الإتجاه الذى تسلكه، سارت "ياسمينا" بحذر وبطء وهى تستمع إلى صوت حذائها على الأرضية الخشبية الصنع والتى كانت تصدر أصواتاً أثناء السير عليها محذرة من تآكلها وربما تهالكها فى أية لحظة ودارت عينيها فى المكان والجدارن تفوح منها رائحة الماضى بأحزانه وأطراحه وقد خط عليها الزمن خارطته العنكبوتية ، أشارت لها "مودة" إلى ركن صغير يسكن زاوية مظلمة يؤدى إلى ُسلم خشبي صغير ، أستندت "ياسمينا" إلى الدرج الخشبى وبدأت فى الهبوط للأسفل وخلفها "مودة" ترشدها حتى لا تتعثر ، وبمجرد أن وصلت للنهاية رأت الشموع الكبيرة مضاءة واستطاعت أن ترى بوضوح ذلك القبو الفسيح والنظيف وكأنه مفصولاً تماماً عن الطابق العلوى للمترل والذى تفوح منه رائحة الأعشاب والبخور ذو الرائحة الطيبة ، خالى تماماً من أى أثاث إلا من فِراش صغير فى أحد أركانه البعيدة ونافذة صغيرة بجواره قريبة جدًا من سطح الأرض

أقتربت "ياسمينا" من الفراش البسيط وجلست على أحد أطرافه وهى تقول لــ"مودة"

– أين هو ؟

أبتسمت "مودة" ابتسامة صغيرة وهى تقترب منها قائلة:

– لن يتأخر.. لا تقلقى إنه ...

قاطعها وهو يهبط على السُلم الخشبى قائلاً بحبور:

– إنه ماذا يا "مودتى"

نهضت "ياسمينا" على الفور بحركة لا إرادية منها وقد خفق قلبها بقوة لا تعلم لماذا، ربما للرهبة التى يضيفها "جاسر" عند ظهوره المفاجىء فى أى مكان ، أقتربت "مودة" منه وهي تهديه ابتسامة عذبة قائلة:

– كيف حالك أيها الشجا ع

إبتسم واضعاً يده على كتفها مربتاً عليه وهو يقول مطمئناً:

– أطمئنى أنا بخير

ثم ألتفت بجسده كله إلى "ياسمينا" التى كانت تفرك كفيها توتراً واقترب منها على مهل وببطء وقد زينت ثغره ابتسامة صغيرة مُرحبة بها ثم قال بصوت رخيم:

– كيف حال أميرتى ؟

أبتسمت رغماً عنها وهى تقول :

– كيف حالك أنت ؟

هز رأسه بوقار وهو يفتح ذراعيه على مصراعيهما مشيراً إلى القبو وهو يقول لها:

– كما ترين أنا أسكن هذا القبو منذ هروبى من السجن

أقتربت منه خطوة وهى تقول بجدية:

– هذا ما أريد أن أفهمه يا "جاسر" .. أريد أن أعرف ما يحدث حولــ..

قاطعها وهو يضع أصبعه أمام شفاها لتصمت فبترت عبارتها وهى تنظر إليه بعدم فهم فسمعته يقول هامساً:

– إنه صهيل "جسور"

أرهفت سمعها وقالت هامسةً :

– ربما رأى "عنان" فهى قريبة من حديقتك

هز رأسه نفياً وهو مازال يرهف سمعه ثم التفت ناظراً إلى "مودة" قائلاً:

– هناك من تبعكما إلى هنا يا "مودة"

قال كلمته وتحرك مسرعاً نحو فراشه الصغير فجذبه بخفة ليظهر خلفه بابًا صغيراً غير واضح المعالم يكفى لمرور شخص واحد فقط فى المرة الواحدة ، فتح الباب فى الحال مشيراً إلى "مودة" أن تمر منه ، أقتربت وأنحنت قليلاً وعبرت ثم أشار إلى "ياسمينا" برأسه وهو يقول :

– هيا

نظرت إليه بتردد لا تعلم ماذا تفعل ولكنها حسمت أمرها عندما سمعت جلبة فى الأعلى وصوت السقف الخشبى يتهالك تحت وقع أقدام ثقيلة ، أنحنت وعبرت الباب سريعاً وخلفها "جاسر" مغلقاً الباب خلفه على الفور .

جذبهم "جاسر" باتجاه حديقته وبدء ثلاثتهم فى العدو تجاهها ، كانت "مودة" أبطأهم ولكنها كانت تعلم أن التوقف معناه الموت ! ،

بذلت مجهوداً مضاعفاً لتلحق بهم مما أجبر "جاسر" على حملها حتى استطاعوا أن يصلوا إلى جواد "ياسمينا"

رفع "جاسر" جسد "مودة " المنهك فوق ظهر "عنان" وإلتفت إلى "ياسمينا " التى كانت تلهث بشدة قائلاً:

– هيا إمطتى جوادك خلفها

نظرت خلفها وهى تسمع صوت تحطم يتبعه جلبة كبيرة وصياحاً ما ثم نظرت إليه بخوف متسائلة:

– وأنت ؟

دفعها نحو "عنان" وهو يصيح بها :

– هيا اصعدى وسنتقابل عند باب الغابة فى بستانى

صعدت "ياسمينا" فى سرعة وانطلقت باتجاه البستان وهى تسمع صوت صهيل الخيول خلفها مباشرة ثم رأت سهماً يعبر بجوار أذنها وسهماً خلفه مباشرة فوق رأسها تماماً ، فصرخت وهى تنطلق بــ"عنان" بقوة فهتفت "مودة" :

– يريدون قتلك معه يا "ياسمينا" أسرعى

بمجرد عبور "عنان " بوابة الحديقة صهلت بقوة عندما ظهر أمامها

" جسور " من العدم ويعتليه "جاسر" متجهاً نحو الباب الخشبى الكبير الذى يفصل حديقته عن الغابة وهو يهتف بها:

– أتبعيني

اتسعت عينيها والهواء يلفح وجهها بقوة وهى تنظر للباب المغلق وهى تصرخ :

– كيف .. إنه مغلق

عبرت الخيول بوابة الحديقة واقتربت منهما وهتف قائد الشرطة بصوت صارخ فى الجنود:

– أقتلوا الجميع الآن .. لا فكاك لهم

سمعت "ياسمينا" صرخته واهتز قلبها بقوة وقد أيقنت أن "سيان" أمر بقتلها هى "مودة" مع "جاسر" .

وفى تلك اللحظة سمعت صهيل "جسور " وهو يرفع مقدمة قدميه ويضرب بهما الباب الخشبى الذى فُتح على مصراعيه وعبر وتبعته "عنان" خلفه مباشرة ، أنطلقا يشقان أشجار الغابة الكثيفة المتشابكة فانحنت "ياسمينا" لتحمى وجهها هى و"مودة" وجوادها يتبع "جسور" فى تصميم ومثابرة محاولا اللحاق به ، أغمضت عينيها وهى ترى أمامها ماضيها كأميرة فى قصرها ومستقبلها كفتاة مُطاردة يريد أخاها الفتك بها ولا تعلم لماذا ! ، ماضية إلى حيث المجهول بداخل غابة تراها وتكتشفها لأول مرة ولا تعلم إلى أين المصير ، لكنها مضطرة إلى أن تمضى وتلحق بـــ "جاسر" إلى حيث المجهول .. ولما لا وقد استحالت العودة !!

****

الفصل التاسع

إعتصرت عينيها ألماً وقد شعرت بشيء صلب يرتطم بكتفها من الخلف ويخترقه وسمعت صرخة "مودة" وهى تهتف باسمها وبدأت قواها تخور وقبضتها تضعف وهى متشبثة بسرج "عنان" الجامحة خلف "جسور" فى سرعة جنونية .

إلتفت "جاسر" فور سماعة صرخة "مودة " وأبطأ من سرعته قليلاً ليستوضح الأمر حتى أصبح بمحاذاة "ياسمينا" تماماً وانعقد جبينه بشدة وهو ينظر إلى السهم المنغرز مقدمته بكتفها من الخلف ، لم يكن هناك مجالا للتفكير فالسهام تتطاير حولهم بجنون والخيول تتبعهم بتصميم ، هتف "جاسر" موجهاً حديثه لــ"ياسمينا" :

– تماسكى .. لا تفقدى الوعى .. من أجلي

قال كلمته الأخيرة وهو يمسك بلجام جوادها وتشبثت بها "مودة" حتى لا تسقط فى أية لحظة وماهى إلا لحظات وسمع "جاسر" صرخة أخرى خرجت بألم شديد من فم "مودة" ولكن هذه المرة كان السهم من نصيبها هى وأصبح "جاسر" فى موقف لا يُحسد عليه ، فانحنى فجأة يساراً فى اتجاه يعرفه جيداً ولم تكن "عنان" فى حاجة إلى توجيهها فقد كانت تتبعه كظله ، وكان الطريق الذى سلكه "جاسر" مليئ بالأشجار المتشابكة شديدة الكثافة مقارنة بغيرها ولكنه كان يعبر بينهم بشكل مدروس تدرب عليه سنين طويلة ، تبعته الخيول المطاردة ولكن هذه المرة وجدت صعوبة بالغة واضطر الجميع إلى خفض سرعتهم والعدو ببطء أقل مما كانوا عليه وفجأة عثرت عينيى قائد الشرطة على طريق مُمهد بين شجرتين فهتف فى الجنود وهو يشير إلى الشجرتين :

– أسلكوا هذا الطريق الممهد ... هيا بسرعة

وبمجرد أن عبر الجنود بين الشجرتين حتى اكتشف الخطأ الذى وقع به ، لقد كان فخاً سقطت على أثره ثلاثة خيول فى ذلك الخندق الكبير وتعثر البقية وحدث هرج ومرج بين الخيول التى كانت تصهل بقوة وهى تتراجع متخبطة فى بعضها البعض وتوقفت المطاردة في هذه اللحظة .

استطاع "جاسر" فى ذلك الحين الإبتعاد بقدر كاف عنهم والإختفاء بقلب الغابة وفُقد أثر ثلاثتهم وغابوا عن الأنظار .

***

هتف قائد الحرس متوسلاً وعينيه زائغةً بين قائد الجيوش و"سيان" وهو يقول بخضوع :

– أقسم لك يا مولاى لقد اختفوا كأنهم سراب ولم نستطع العثور عليهم ، الفخ الذى نصبه لنا كان مُحكماً للغاية وكاد أن يقتلنا جميعاً

صرخ "سيان" وهو يردد بهستريا :

– أغبياء .. حمقى .. ملاعيين

ثم استدار إلى قائد الجيوش صارخاً فى وجهه:

– بأمر مني أنا الملك "سيان" يتم وضع الملك المنصور بالسجن ومن يتفوه بكلمة واحدة تُقطع عنقه فى الحال فلا ملكَ غيري بعد الآن !.

وقبل أن يجيب قائد الجيوش صرخ "سيان" مستطرداً:

– وأمر جندك بالإنتشار فى المملكة وإذا اعترض أحد أو حاول الخروج على أوامرى يُعتقل ويُقتل فى الحال هو ونسائه وأطفاله .

أخذ يتنفس بعمق ليهدأ قليلاً وهو يتابع بغطرسة :

– أما من يطيع الأوامر ويخضع لى فأعطه من الأمتيازات ما يريد واجعله فوق الجميع

وألتفت إلى قائد الحرس هاتفاً :

– أما أنت أيها الغبى فاذهب إلى الأمير " نوار" وأتباعه وقل له أن يستزيد فى الحديث عن علاقة الأميرة المحرمة بقائد الرماة بين الناس ويقنعهم أنى أطاردهم للثأر لشرفنا الذى لوثه قائد الرماة ثم أجمع المهرجين والحثالة والبصاصين وأمرهم بأن يمشوا بين الناس محدثين عن عدلى ومناقبى والخير الذى سيعم المملكة أثناء فترة حكمى لهم

ثم عقد ذراعيه فوق صدره مطلقاً زفرات مُحملة بالوعيد للجميع قائلاً:

– لابد من الترهيب والترغيب .. من يوالينى سأواليه ومن يعادينى فسيتمنى الموت حتى يجده.

*****

إندفع الجنود إلى مخدع الملك المنصور فاستيقظ فزعاً وهو ينظر إليهم وهم مدججين بالسلاح ملتفين حول فراشه الوثير :

– ماذا يحدث كيف تقتحمون مخدعى هكذا

قال قائد الشرطة بصرامة موجهاً حديثه للجنود :

– بأمر من الملك "سيان" أقبضوا عليه فى الحال

إتسعت عينيى الملك المنصور عندما سمع عبارة قائد الشرطة وأخذ يهتف وهم يحملونه رغماً عنه :

– "سيان " !! .. " سيان" يفعل هذا بأبيه .. أتركونى

ذهبت هتافاته وصرخاته هباءاً وهو محمولاً ومُقيداً بالسلاسل والأغلال إلى مصيرة الوحيد ، إلى السجن .

فكما أصبح ملكاً فجأة ، زال عنه عرشه فجأة ، زُج به فى السجن إلى جوارغريمه الأسبق ، أغلقوا الباب الحديدى خلفه وتركوه يصرخ وينادى ولا مُجيب له حتى خارت قواه وجلس متشبثاً بالقضبان الحديدية وهو يبكى فى ذهول وكأنه فى حلم يريد الإستيقاظ منه ولكنه لا يستطيع فلم يكن حلماً ، ولقد تأكد له ذلك حينما سمع صوتاً قوياً يأتى من خلفه يحدثه بوقار قائلاً:

– مرحباً بك يا قاضى القضاة

تسارعت ضربات قلب المنصور وهو يرفع رأسه إلى مُحدثه الذى اقترب منه بابتسامة صغيرة ساخرة قائلاً له :

– لقد تأخرت كثيراً .. كنت أنتظرك منذ سنوات

إبتلع المنصور ريقة ووقف وهو يستند إلى الباب وقضبانه ورغماً عنه شعر بالرهبة تجاه محدثه ونطق لسانه بغير شعور وهو ينحنى برد فعل تلقائى:

– جلالة الملك الصالح !

****

لم تكن قد فقدت الوعى بعد وهو يحملها بين ذراعيه ويضعها فوق العُشب الجاف أسفل شجرة ضخمة بهدوء وسلاسة وهى تُتمتم بخفوت :

– "مودة" .. "مودة"

أجابها "جاسر" وهو يجلسها وينظر لموضع أصابتها :

– لا تقلقى إنها بخير وأصابتها طفيفة للغاية

بللت "مودة" شفتاها بلسانها وهى تلقى نظرة على "ياسمينا" وتقول بصوت متهالك:

– لا تقلقى يا بنيتى أنا بخير .. السهم لم يصب إلا طرف ذراعى فقط وسقط فى الحال.

أغمضت "ياسمينا" عينيها وكتمت صرختها متشبثةً بذراعه حينما أنتزع "جاسر" السهم من كتفها فجأة وبدون سابق إنذار، شعرت بأن روحها غادرت منها ثم عادت إليها مرة أخرى وبدأت تشعر بخدر يسرى فى كتفها بموضع الإصابة وحتى أصابع يدها ، نهض "جاسر" وهو يتلفت حوله ببطء ، يبحث بعينيه بين الأشجار عن شجرة بعينها حتى وجدها فذهب إليها واقتلع بعض أوراقها الجافة ولملم بعض ثمارها وعاد إليهما على الفور .

جلس بجوار "ياسمينا " وقال وهو يمزق جزءًا صغيرًا من ثيابها واضعاً ورقة من الشجر مكان إصابتها مثبتاً لها جيداً:

– استرخى ولا تخافى هذه الأوراق ستعمل على إلتئام الجرح سريعاً وستعالج أعراض الإصابة هى وثمار التين تلك .. حاولى أن تأكلى بعضاً منها

وضع الثمار بجوارها ثم تقدم من "مودة" التى كانت أفضل حالاً من الأميرة وفعل نفس الشىء معها وأعطاها بعض الثمار لتأكلها فربتت على كتفه بامتنان وهى تقول:

– لا تخشى علي يا ولدى إهتم بالأميرة فإصابتها بالغة

إلتفت إلى "ياسمينا" فوجدها قد استرخت بظهرها على الأرض مغمضةً عينيها مما أشعر "مودة" بالقلق وقالت :

– ماذا بها ؟

قال "جاسر" مطمئناً :

– أتركيها تنام فهى فى حاجة إلى الراحة الآن

قالت "مودة" بنبرة خفيضة متسائلة:

– ماذا سنفعل الآن ؟ .. هل سنذهب إلى " صارم الحكيم " ؟

نظر إلي "ياسمينا" ثم نظر إليها قائلاً:

– بل ستذهبين وحدك ولا تقلقى "جسور" يعرف الطريق جيداً .. سيذهب بك إلى هناك ثم يعود إلي عند بزوغ أول خيط من خيوط الصباح.

ألقت "مودة" نظرة على جسد "ياسمينا" المسجى على الأرض ونهض هو يجمع الحطب الصغير وقالت بقلق:

– ولماذا لا نذهب جميعاً ؟!

قال وهو يشعل الحطب بصعوبة:

– لا نستطيع أن نأخذها إلى " صارم الحكيم" وهى لا تعرف أى شيء عما حدث فى الماضى فهذا المكان آخر مكان آمن لنا ولا أستطيع التضحية به بسهولة هكذا

قالت معترضة:

– ولكن "ياسمينا" غير الجميع يا ولدى ثم أنها مُطاردة مثلنا

هز رأسه وهو يقول بجدية:

– لا أستطيع أن أجازف تحت أى ظرف .. وتعليمات "صارم " محددة وتسرى على الجميع ..وأنت لن تستطيعى البقاء معنا أكثر من هذا .. لابد وأن ترحلى بعد قليل

أرسلت "مودة" تنهيدة قوية خرجت من أعماق قلبها وهى تقول باستسلام :

– كما تريد ..ولكن الأميرة فى أمانتك وتحت رعايتك يا "جاسر"

إبتسم "جاسر" ابتسامة مشاكسةً وهو يرفع حاجبيه قائلاً:

– أتخشي عليها مني ؟!

إبتسمت وقد غزا الإرهاق معالم وجهها وخلجاته وهى تقول بوهن :

– لا أخشى على أى شيء منك يا ولدى.. فأنت تلميذ "صارم الحكيم" .

أمسك يديها وهو يساعدها على الإستلقاء فوق العُشب قائلاً:

– إستريحى قليلاً قبل الذهاب وقبل أن تستيقظ "ياسمينا "

***

تجمدت الدماء فى عروق الناس وانتشر الرعب بينهم وهم يرون جنود الجيش تنتشر فى المدينة وشوارعها بينما يهلل البعض لها ويهتف بسعادة وهم يسيرون خلف الخيول مبعثرةً عليهم غبارها تلطخهم به دون أن تعبأ بهم فهم من أصروا على السير خلفهم طواعية !، وانتشر خبر سجن الملك المنصور وتنصيب "سيان" ملكاً للممكة ووقف قائد الجيوش ينادى فى الناس بصوت جهورى قائلاً:

– أيها الناس ..لقد شعر الملك "سيان" بمعاناتكم وفقرقكم وسوء أحوالكم أثناء حكم الملك المنصور ..ولقد ثارت عواطفه تجاهكم ودمعت عيناه من أجلكم وحاول كثيراً مع والده المنصور أن يقيم العدل فيكم ويرحم ضعفكم ولكن المنصور أبى ذلك وأصر على موقفه منكم وأصر على التغاضى عن ما يحدث لكم والإنتهاكات التى تتعرضون لها أثناء فترة حكمه.. لذلك ثار الملك "سيان" مصراً على الإطاحة بوالده من أجلكم أنتم ..

هلل على الفور من كانوا يسيرون خلف الخيول هاتفين بحياة الملك "سيان" بينما نظر الناس بعضهم إلى بعض ولقد عادوا بذاكرتهم إلى الوراء عشر سنوات وتذكروا نفس المشهد حينما عزل قائد الجيوش "سيان الأكبر" الملك "الصالح " وقال نفس الكلمات تقريباً مع كثير من الشجن والعاطفة ، إنصرف قائد الجيوش بخيله وركبه وبدأ المهرجين فى أداء فقراتهم المضحكة وتقليد المنصور وهو يُعتقل ويزج به فى السجن والبعض ينظر ويضحك والبعض الآخر يزم شفتيه ولسان حالهم يقول :

"ما أشبه اليوم بالبارحة "

وتوسط الأمير "نوار" الحلقة التى يجتمع حولها الناس ويتبعه رجاله وأتباعه وأخذ يهتف فى الناس وهو يقص عليهم ما حدث بين الأميرة وقائد الرماة من أفعال مشينة مما تسبب فى جرح مشاعرأخيها الملك "سيان" وقرر رغماً عنه مطاردتهم

حتى يقتص لشرفه الملوث ومن أجل ذلك أيضا قرر الملك "سيان" الإطاحة بوالده لأنه يصمت عن تلك الأفعال المشينة التى تسيئ إلى المملكة .

لم يبذل الأمير "نوار" جهداً فى إقناع بعضهم فلقد وجد هواهم تصديق ما يقول دون بينه ولا شهود وكأن الناس قد جُبلوا على حُب الخوض فى الأعراض ونهشها بأريحية تامة، يهللون الآن ويهرولون فى أعقاب الخيول مجففين ماء وجووههم بتراب خيولهم تبركاً وخضوعاً .

إنصرف البعض إلى تجارتهم وخاناتهم ضاربين كفاً بكف وهم ينتظرون حالاً أسوأ بكثير مما كانوا عليه ، وسارت بينهم الهمهات وقد أضمروا بداخلهم على عدم الخضوع مرة أخرى كما فعلوا منذ سنوات فـ"سيان" الأصغر لم يختلف كثيرًا عن "سيان الأكبر" جميعهم خونة .

****

أستيقظ "جاسر" صباحاً عندما استمع إلى جلبة قريبة منه وفتح عينيه ببطء وهو يشعر بأنفاس قريبة منه تلفح وجهه .. إبتسم وهو يربت بكفه على وجه "جسور" وينهض واقفاً يبحث فى سرجه عن الرسالة التى كان ينتظرها ، وبالفعل وجدها وفضها سريعاً وابتسم وقد إطمئن على سلامة وصول "مودة" وإطمئن أيضاً حينما وجد إشارة فى الرسالة من "صارم" تفيد أنه تصرف بشكل صحيح حتى الآن .

طوى الرسالة والتفت خلفه واقترب من الشجرة التى ترك عندها "ياسمينا" نائمة منذ ليلة أمس ولكنه عقد جبينه بقوة وتوجس حينما لم يجدها ، شعر بالقلق يعتريه بشدة وأخذ يدور حول المكان لعله يجد لها أثراً ولكنه لم يجد أى أثر لها ، إعتلى صهوة جواده القوى وهو يربط على رأسه قائلاً :

- تفقد أثر "عنان"

سار "جسور" ببطء وعلى مهل يبحث عن محبوبته وقد انتقل قلق فارسه إليه وبدأ يدور فى المكان ويبتعد شيئاً فشيئاً حتى ابتعد عن المكان و"جاسر" ينادى باسمها محاولاً اختراق أغصان الأشجار بعينيه

حتى توقف "جسور" فجأة وصهل بقوة وهو يرى "عنان" مقدمة عليهما إنطلق "جاسر" نحوها وأخذ يتفقدها وفجأة اضطرب قلبه بقوة وسارت قشعريرة فى جسده وهو يرى آثار الدماء التى رسمت لوحة صغيرة على ظهر "عنان" تمثل أصابع صغيرة كانت مدرجة فى الدماء وتشبثت بظهر "عنان" بقوة قبل أن تُحمل من فوقها بعنف .

تفقدها جيداً وتفقد قوائمها الأربعة وقال بخوف حقيقى يشعر به لأول مرة فى حياته :

– لصوص .. !!

****

الفصل العاشر

وقف قائد الجيوش أمام "سيان"وقد أنهى قراءة رسالة قبيلة "بني هوذ" وطواها سريعاً وهو ينظر إلى "سيان" الذى كان يستمع إلى فحوى الرسالة فى تركيز وتفكير شديد ، قرر أن يقطعه وقال موجهاً حديثه لقائد جيوشه:

– ماذا ترى يا قائد الجيوش.. أنا أشعر أن تلك الخطوة لابد من تأخيرها قليلاً ولكنى أخشى غضب أخوالى ..فهم كما تعلم زعماء القبيلة هناك ولابد من تنفيذ أوامرهم كما يجب.

عقد قائد الجيوش بين حاجبيه وهو يقول مستفهماً:

– ولماذا التأخير يا مولاى فأنت الآن الملك والكلمة الأولى والأخيرة لك

حك "سيان" ذقنه وهو يقول :

– بمجرد سماحى لجنود قبيلة "بني هوذ" للدخول والأقتراب وحماية حدود مملكتنا سيجعل العامة تفكر .. والتفكير كما تعلم ليس بمصلحتنا أبدًا

أبتسم قائد الجيوش ساخراً ثم قال:

– مولاى الملك وهل تعبأ بمثل هؤلاء .. فلو كان يرجى منهم التفكير لما صمتوا كل تلك السنين

قرر "سيان" أن ينهى التردد العابث بعقله وأشار له قائلاً:

– معك حق فلو كان يرجى لهم التفكير لما صمتوا على ما فعله قدوتى وقائدى "سيان الأكبر" مع "الصالح" منذ سنوات.. هيا أرسل للقبيلة كتاب مني بموافقتنا على حماية حدودنا كما يريدون وانتشار جنودهم فيها ولتكن هذه الخطوة الأولى من خطواتنا المستقبلية لتثبيت دعائم القبيلة داخل المملكة كما خططنا منذ سنوات طوال.

أبتسم قائد الجيوش وهو يؤدى التحية العسكرية برضا كبير ويهم بالأنصراف ولكن "سيان" أوقفه قائلاً:

– لا تنسى أمر "صارم الحكيم" ..فبدون أن نجده ونقضى عليه هو واتباعه كل شيء نفعله مُهدد بالفضح فهو يقرأ أفعالنا ويعلم ما يدور بخلدنا قبل أن نقوم به!

ثم ضرب أحد حواف عرشه وهو يقول بغضب وحيرة :

– لا أعلم كيف يفعل هذا !! .. فى الماضى لم يصدقه أحد ولكن بعد تحقق ما كان يتنبأ به فسيصبح حديثه له شأن آخر عند العامة وربما يحدث ما نخشاه جميعاً .

أنحنى قائد الجيوش قائلاً:

– نبذل قصارى جهدنا يا مولاى ولكنه كما تعلم داهيةً ويستطيع بمعاونة أتباعه أخفاء مكانه كلما أراد ذلك .

*****

لاحظ "جاسر" الخدوش والحروق الطفيفة بجسد جواد "ياسمينا" ورماد النيران والعُشب المبتل مازال عالق بقوائمها فعلم أن من اختطفوها يُخيمون بمكان بعيد عن قلب الغابة وقريب من الصخور والشلال الصغير ، إنطلق بـــ "جسور" يشق به قلب الغابة وأغصانها ومصاعبها حتى بدء الشلال بالظهور فسار بمحاذاته قليلاً وعلى مهل ، فالمنحدر خطير للغاية وبدأت آثار أقدام الخيول فى الظهور تتبعها هو بهدوء وترقب فى حذر وكانت خيوط القرص الذهبى بدأت فى الإنسحاب من سماء المعركة مختبئة خلف عتمة قمرها المظلم فى ليلة توهج فيها القمر مستعداً للنزال !.

ترجل الفارس من فوق جواده الأسود وهو يرى الدخان يتصاعد للسماء وسمع طقطقات ألسنة اللهب التى تتوهج وتزداد من مسافة قريبة منه، إختبأ خلف الشجر الضخم وهو يتنقل من شجرة لأخرى يطارد الدخان المنبعث من مكان المُخيم وإندهش عندما ميز صوت طبول تدق وتزداد شيئاً فشيئاً مع عتمة الليل ارتفاعاً ووضوحاً ، شعر بشعور خفى يتملكه وهو يرى اللصوص وقُطاع الطرق يلتفون حول نيران كبيرة ويضحكون ويتسامرون والنيران تلقى ضوءها عليهم فتُظهر صدورهم العارية ووجوههم الصارمة القاسية ورائحة شواء الغزال تسيل لعابهم أكثر وأكثر.

وفجأة ارتفعت صرخة فى السماء تجمدت على آثارها الدماء فى عروقه وقد عرف مصدرها إنها"ياسمينا" ، رأى رجلان من اللصوص يخرجان من أحدى الخيام وهى بينهما مقيدة بالحبال تقاوم كريشة فى مهب الريح وتقدم منها رجل ضخم ودفعها فطرحها أرضاً فتكشف جزءاً من ساقيها وبدت أنثوتها طاغية تدفع الدماء إلى الرؤوس فيسيل على أثرها لعاب

اللصوص كوحوش ضارية ، لم يتحمل "جاسر" تلك النظرة فى عيوفم ولأول مرة تذهب يده إلى سيفه بدون تفكير ، قبض على مقبض سيفه وهم بانتزاعه ولكنه رأى أمرأة أخرى تخرج من الخيام وتتجه نحو الرجل الضخم بثورة عارمة وتسبه بأفظع الألفاظ وهو يحاول دفع يدها بعيداً عنه صارخاً فيها:

– أصمتى أيتها العجوز سأنالها رغماً عنها وعنكِ وأنعم بجمالها

صرخت "ياسمينا" باحتقاروتقزز شديد :

– هيهات أيها المجرم أنا الأميرة "ياسمينا"

نظر اللصوص إلى بعضهم البعض وإلى زعيمهم الذى انفجر ضاحكاً فظهرت أنيابه الُمقززة ثم قال:

– أذن فسننال الجائزة الكبرى الذى قدمها الملك" سيان" لمن يسلمك له

ثم تابع بنرة خبيثة :

– ولكن أين هو عشيقك أمير الرماة ..هل أخذ حاجته منك وتركك فى الغابة وحيدة ، أنهى عبارته وثارت ضحكات اللصوص المتوالية وهى تنظر إليهم بعينين غائرتين لا تفهم شيئاً ، ولكنها اعتدلت فى شموخ وهى تقول :

– أخرس أيها اللص .. أنا ابنة الملك المنصور

زادت ضحكاتهم ولمزاتهم ثم نزع أحدهم الريش المعلق فوق خصره حول غمد سيفه ووضعه فوق رأسه وأخذ يدور حولها ساخراً من والدها وهو يقول :

– أنا ابنة الطرطور .. أنا ابنة الطرطور

والجميع يضحك ويقهقه حتى انقلبوا على ظهورهم من كثرة الضحك وهى تشاهدهم بعينين دامعتين وجسد مرتعد مرتعش، وما أن هدأوا حتى تقدم منها زعيمهم وهو يتابع حديثه الساخر:

– ألا تعلمين أيتها الجميلة أن الملك الآن هو الملك "سيان" وأن أبيكِ زُج به فى السجن .. أنتِ الآن غنيمتى .. سأنالك ثم أُسلمك إلى أخيك ليقتلك أنتِ وعشيقك أمير الرماة وآخذ مكافأتى .

جذبها من حبالها الُمحيطة بقبضتيها وهو يصرخ بها :

– لن يشفع جمالك عندى وأنا أفترسك

ثم صرخ فى الرجلين :

– إحملوها إلى خميتي مجدداً.. ولا تفكوا قيدها فستكون عروسى الليلة

أخذ يضحك فى صوت وحشى جهورى وفى تلك اللحظة كان "جاسر" يفكر بطريقة أخرى ويتسلل بخفة تجاه الخيمة التى رأى "ياسمينا " تُحمل إليها ولكن من الجهة الأخرى الخلفية ، أخذ يتقدم ببطء شديد متشحاً بالظلام والأشجار حتى استطاع الوصول إلى الخيمة الكبيرة التى تحوى "ياسمينا" المقيدة بالحبال بداخلها وتسيل الدماء من بين قبضتيها وتأن بهدوء وتبكى بكاءاً حاراً وهى تتخيل نفسها بين يدي ذاك الرجل الضخم وأخذت تتمتم وهى تشهق بصوت مسموع :

– أين أنت يا "جاسر"

أستطاع أن يشق شقاً صغيراً مُمزقاً جزء صغير من الخيمة بنصل خنجره المُدبب

وأخذ يجذبه بحذر وهدوء حتى اتسع شيئاً فشيئاً بخفة وبراعة دون صوت ولكنه توقف فجأة عندما لمح الرجل الضخم يدلف إلى الخيمة ويأمر أتباعه بالأبتعاد قائلاً:

– هيا اذهبوا لا أريد إزعاجاً هذه الليلة

ضحك أتباعه بوقاحة وانصرفوا يتغامزون مسدلين ستار منفذ الخيمة وبدء يتقدم نحوها بعينين راغبتين وهى ترتعد وتزحف للخلف طالبة للرحمة ولكنه لم يسمعها ، لم يرى سوى جمالها ولم تحركه سوى رغبته فيها وكأنه أصبح أصم أبكم منزوياً عن الدنيا وما حولهما وما أن أمسك بها حتى صرخت بفزع صرخة عظيمة ليس بخوفها مما ستلاقيه على يده ، وإنما لرؤيتها رأسه تطيح من فوق جسده لترتطم بجدار الخيمة فى الجهة الأخرى وتدحرج على الأرض ثم يسقط وتندفع شلالات الدماء من منبت رأسه ويسقط جسده يساراً فيظهر "جاسر" من خلفه وقد استحال لون عينيه للون الدماء وسيفه يقطر مثلها ولكنها دماء حقيقة ليست لوناً فقط ، كتمت صرخة أخرى ولكنها صرخة سعادة وهى تنطق باسمه،

والأمل يضوى عينيها ببريقه وقد دب فى أوصالها ينبئها بالنجاة ، وضع سيفه فى غمده وأخرج خنجره مرة أخرى واقترب منها وأخذ يقطع حبال قيدها وهو يتمتم بحذر:

– أطمئنى .. أهدئى قليلاً .. سيصبح كل شيء على ما يرام

كان جسدها يرتجف خوفاً وفرحاً وارتجف أكثر حينما انتهى من معالجة قيودها وأمسك بها ليوقفها ولكنه وجد الوهن يدب فى أوصالها وقدماها ترتعشان وهى تقول بضعف:

– لا أشعر بقدماي

شعر بأقدام تقترب من الخيمة وصوت إمرأة عجوز تصرخ :

– أخرج أيها الأحمق

ومن الواضح أن اللصوص يحاولون إبعادها عن الخيمة حتى لا تعكر صفو زعيمهم وهى تقاومهم وتصرخ بهم ، ألتفت "جاسر" إليها ليجدها فى طريقها للسقوط من فرط الإجهاد والفزع التى تعرضت له فحملها بين ذراعيه واتجه إلى الشق الذى صنعه فى الخيمة وخرج منه على الفور وبدء رحلة العودة ولكن هذه المرة وهو يحملها بين يديه ، وما إن ابتعد لمسافة بعيدة نسبياً عن مخيم اللصوص حتى سمع صوت الصرخات والطبول تدق وتزداد حدة منذرة بوعيد اكتشفاهم لمقتل زعيمهم وشعر أنه لا بد من أن يزيد من سرعته قليلاً ، فرفعها على كتفه وبدء فى الركد الخفيف حتى وصل للشلال ، أستعادت "ياسمينا" وعيها قليلاً وسمعته يطلق صفيره المميز وصهيل "جسور" يقترب منهما وما أن اقترب حتى حملها "جاسر" ووضعها فوق ظهر حصانه وصعد خلفها وركل بطن "جسور" بخفة فانطلق مسرعاً عائداً إلى قلب الغابة مرة أخرى ، أما هى فقد غلبها الإعياء وعادت إلى الوارء وتركت رأسها تسترخى على صدره وأغمضت عينيها وانسابت العبرات على وجنتيها وراحت فى سبات عميق حتى قطع شوطاً كبيراً وهو يبتعد عن مكان قطاع الطرق متخذاً مساراً متعرجاً حتى يستطيع أخفاء آثار أقدام حصانه فلا يتبعه أحداً منهم والجو العاصف يثير الأتربة وأوراق الأشجار فيساعدهم على محو آثارهم بالكلية .

****

عاد "جاسر" إلى قلب الغابة حيث الشجر الضخم والذى يخفى بأوراقه العريضه زائريه وبدء المطر فى الهطول رويداً رويداً ، صهلت "عنان" بضعف حينما رأهم مقبلين عليها وقد افترشت الأرض بقوائمها الأربعة ، نهضت بإعياء ووهن عندما اقترب منها "جسور" متحسساً غرمًا برأسه بهدوء وسلام وترجل "جاسر" من فوق ظهره ثم استدار وحمل "ياسمينا" المُتعبة ولكنها فتحت عينيها وبدلا من أن تبادله نظرة أمتنان عاملته بجفاء ودفعت يده وحاولت القفز من فوق ظهر "جسور" وحدها ولكنها سقطت ، ساعدها "جاسر" على الوقوف وفى عينيه نظرة متسائلة ، لماذا ؟! ، عاد من تساؤلاته ولها على صوت هتافها وهى تدفع يده مرة أخرى بحدة :

– أتركنى.. أستطيع النهوض وحدى

عقد بين حاجبيه مستنكراً لنفورها منه وهو يقول بعدم فهم:

– ماذا بكِ ؟! .. لماذا هذه الحدة فى صوتك

سارت خطوتين للأمام وهى تقول بغضب:

– لا شأن لك بى

زفر بقوة وهو يشعر بالأرهاق الشديد يدب فى أوصاله :

– بداخلى سؤال يلح بقوة ورغم أرهاقى إلا إننى أريد أجابة شافية منكِ.. والآن

استدارت له بأنفة وصمت فقال على الفور:

– كيف استطاع اللصوص أن يأخذوكِ بالأمس

هتفت بعصبية:

– لا شأن لك

صاح غاضباً وقد فاض به الكيل:

– أين ذهبتِ يا "ياسيمنا" .. لو كنتِ بقيتِ بجوارى لما استطاع أحد الوصول إليكِ.. ولماذا اصطحبتِ معكِ "عنان" .. إلى أين كنتِ تنوين الرحيل بدونى ؟!

لازت "ياسمينا" بالصمت ولم تجيبه على تساؤلاته العديدة مما جعله يغضب أكثر ولكنه آثر الصمت فـ زخات المطر قد أزدادت وملابسها ابتلت للغاية ويظهر عليها الإعياء الشديد، وضع يديه على ظهر "جسور" متأهباً لأعتلائه وهو يقول:

– هيا .. أتبعينى

هتفت باعتراض:

– إلى أين ؟

أستقر فوقه وهو يتابع دون أن ينظر لها :

– إلى مكان أكثر جفافاً من هنا

أعتلت صهوة مهرها بيدين مرتعشتين وتبعته بخطوات بطيئة وبنظرات منكسرة حزينة ، بعد قليل توقف وترجل ففعلت مثله ، أمسك بلجام جواده ورأته وهو يتوجه نحو كومة من الأشجار أوهكذا ظنت فى البداية ، لكن بعد اقترابها منها

وجدها عبارة عن كوخ صغير خشبى تغطية الأشجار من كل اتجاه فمن يراه من بعيد يظنه كومة من الأشجار ومتشابكة الأغصان لتصنع منه مكان آمن بعيد عن أعين الأشرار ، أشار إليها وهو يقول بلهجة جادة :

– هيا أدخلى

ارسلت نظرة متفحصة للكوخ الخشبى ثم عادت إليه بعينين متسائلتين فقال على الفور:

– هيا ..أدخلى وأستريحى بالداخل قليلاً فلدينا حديث مطول بعد أن تستعيدى نشاطك وقوتك

أبتلعت ريقها بصعوبة يغلفها الخوف وهى تتمتم:

– وأنت أين ستنام؟

نظر لها نظرة زاجرة وقال بحدة:

– سأظل فى الخارج هنا

تقدمت خطوات نحو الكوخ حتى اقتربت من بابه ونظرت نظرة خاطفة فوجدته خالٍ تماماً يلفه الفراغ سوى من بعض المنسوجات المتهالكة المفترشة الأرض ألتفتت إلى "جاسر" لتبدى اعتراضها ولكنها وجدته يمد يده لها بوشاحة السميك قائلاً:

– خذي هذا تدفئى به حتى أستطيع إشعال بعض النيران فى الداخل فملابسك مبتلة تماماً

أخذته منه على مضض وقالت بتردد :

– أشعر بالعطش الشديد

ذهب عنه غضبه الذى كان يشعر به ونظر لها مشفقاً وتحرك على الفور وتقدم منها كثيراً وهو يقول بمرح:

– هل تستطيعين شرب ماء المطر

نظرت له بسذاجة وهى ترفع حاجبيها بعدم فهم فأبتسم ابتسامة كبيرة وهو يشير إلى الأرض قائلاً:

– أجلسى على ركبتيكِ

رفعت كتفيها وهى تحرك رأسها ببراءة كالأطفال و تجلس على ركبتيها كما أمرها فوجدته يبتعد عنها مقدار ذراع للخلف وجمع كفيه مقرباً بينهما بشدة ويقوصهما حتى صنع منهما نصف دائرة وهو يمدهما فى الهواء وبدأت قطرات المطر تتجمع بين كفيه بكثرة فقال على الفور بلهجة مرحة:

– هيا ارفعى رأسك لتشربى

فهمت ما يريد واقتربت برأسها حتى أصبحت أسفل كفيه وفغرت فاها وعندما امتلأت كفيه بالمياة بدء يصبها فى فمها ،هو يضحك وهى تشرب مغمضة العينين كالأطفال ، وما إن تنتهى جرعة المياة فى كفيه حتى يرفعها ويقوصها مرة أخرى لتمتلىء ثم يعيد صبها فى فمها مرة أخرى وهى تضحك ثم تسعل بشدة وتخفض رأسها بين السعال والضحك ، وما أن هدأت حتى شعرت بيديه تمسك بمرفقيها وتنهضها بحنان حتى نهضت واقفة أمامه فأخذها إلى الكوخ ليحميها من ماء المطر ، وقف بها عند بابه وهو ينظر لها وقال بهدوء ومازالت ابتسامته الصغيرة المعاتبةً عالقةً بشفاه :

– لماذا أخذتِ "عنان" وتركتينا ورحلتِ ؟

أشاحت بوجهها وقد تلاشت ابتسامتها وذابت على شفتيها وقالت بحزن:

– أريد أن أنام

مط شفتيه باستياء وهو يستشعر صعوبة التعامل معها ، كم هى عنيدة تلك الفتاة ولا تفشى ما بداخلها بسهولة ، كم هى غامضة وتطوى مشاعرها بداخلها دائماً

أستسلم أخيرًا واشار إلى باب الكوخ وهو يقول بهدوء:

– تفضلى .. ولكن لنا حديث فى وقت آخر

تقدمت للداخل واستدارت لتغلق الباب خلفها ، ثم قالت بتلعثم ونبرات خائفة:

– هل من الممكن أن يبحث اللصوص عنى مرة أخرى؟

عقد ذراعيه فوق صدره وهو يقف أمامها خارج الكوخ والمطر يهطل مرتطماً بجسده ثم قال بنبرة جادة قاطعة:

– أغلقى الباب وأطمئنى .. فلن يستطيع أحد فتحه أوالوصول إليكِ إلا وانا جثة هامدة

أغلقت الباب ببطء وهى ترتعد خوفا وترقباً ، لاتعلم حتى الآن ماهو مصيرها ولم تستطيع أن تفسر ما رأته وجعلها تغضب وتتركه وتذهب بعيدا حتى وجدها اللصوص ، كل ما تستطيع تفسيره أن المستقبل مبهم تماماً ، فهاهى تنام فى

كوخ خشبى وتتوسد وشاحه وهو ينام فى الخارج ينتظرها ، فماذا ستقول له وكيف سيفسر هو غضبها مما رأت ، لابد أنه سيفهم ما يدور بقلبها ، زفرت بقوة وهى تغمض عينيها محاولةً أن تؤجل كل تلك التساؤلات حتى تستيقظ فهى تتضور نوماً كما تتضور جوعاً تماماً ، أما "جاسر" فلقد أخذ بلجام "عنان " وجسور" أسفل بعض الشجر الضخم ليحميهم من البرد والمطر على قدر استطاعته ثم عاد إلى باب الكوخ وافترش الأرض أمامه مستنداً بظهره إليه مُنصباً نفسه حارساً لها ، لن يستطيع أحد المرور إليها إلا من خلال جثته كما قال لها ، أغمض عينيه فى أرهاق شديد ويدور بخلده تساؤلات عاصفة أبرزهم .. لماذا رحلت وتركته ، أين كانت تظن نفسها ذاهبةً بعيداً عنه ، ولماذ لم تسأل عن "مودة" حتى الان ؟!

****

الفصل الحادى عشر

رغم إنهاكها الشديد واستغراقها فى نوم طويل إلا أنها استيقظت عندما تسللت إلى أنفها رائحة الشواء اللذيذة ، إعتدلت جالسة وهى تتنفس بعمق للتتأكد من تلك الرائحة ثم نهضت على الفور واتجهت إلى باب الكوخ وفتحته وهى تشرأب بعنقها خارجاً تبحث عن مصدر تلك الرائحة حتى سمعته يقول بصوت مرح :

– كنتُ أعلم أن رائحة الشواء ستوقظك

إلتفتت إلى مصدر الصوت فوجدته بجانب الكوخ وقد أشعل ناراً حطبية على جانبها قائمتين خشبيتين معلقاً بهما غزالاً صغيراً يدور فوق النار وقد أوشك على النضوج

اقتربت منه وجلست أمامه وهى تنظر للغزال بشهية كبيرة ومعدتها تستغيث بها أن ترحمها وتقذف بها بعضاً منه ، إبتسم وهو يخطف نظرة إليها قائلاً:

– ها هو قد نضج سريعاً

ثم أمسك خنجره وقطع جزءاً منه ومد يده لها به، تناولته منه بأطراف أصابعها وقضمت منه قطعة صغيرة بتلذذ كبير ثم قالت وهى تمسح شفتاها بلسانها :

– كيف استطعت صيده.. إنه سريع جدًا ؟

نظر لها نظرة جانبية وقال :

– وهل تظنى أننى قد تسابقت معه مثلاً ! .. لقد أوقعته بسهم من سهامى

رفعت حاجبيها وهى تقول بشفقة مصطنعة:

– أيها المتوحش

أبتسم وهو يجيبها قائلاً:

– إذن فلا تأكليه أيتها الجائعة

قال كلمته وقضم قضمة كبيرة من قطعة بين يديه ونظر لها وهى تأكل بنهم غير مبالية بوجوده وإستطرد متابعاً :

– ذكرينى فيما بعد أن أُعلمك الرماية على الأهداف المتحركة

ابتلعت الطعام وهى تومىء برأسها موافقةً بينما صمت هو حتى أنهيا طعامهما ، نفضت "ياسمينا " أصابعها وهى تقول ببراءة:

– أنا عطشة للغاية

نهض "جاسر" واقفاً وحمل قربة مياه صغيرة من فوق ظهر جواده وقربه منها قائلاً:

– تفضلى

نظرت إلى القربة ثم نظرت إليه بشك وهى تقول مستفهمة:

– لماذا إذن جعلتنى أشرب من مياه المطر ؟!

أبتسم قائلاً وهو يرفع كتفيه بشكل تقليدى:

– لسببين .. الأول لأن جروحك لم تلتئم بعد ومياه المطر تساعد على شفاء بعض الأسقام أما الثانى فلقد أحببت أن تجربيها بنفسك فهى تجربة جديدة عليكِ تماماً

شربت قليلاً من الماء ثم نهضت ووقفت أمامه قائلة بتحدى :

– كيف علمت أننى لم أشرب مياه المطر من قبل ؟

أستدار وتوجه إلى جواده وقال وهو يعلق القربة بسرجه :

– توقعت ذلك

توجهت نحوه بغضب شديد ووقفت بجانبه وهى تهتف بانفعال وتلوح بيديها:

– لماذا تسخر مني دائماً .. هل تظن أننى لا أعلم بعلاقتك بـــ "مودة" ؟

أستدار بوجهه إليها فى صمت متزن ينظر إليها وتمتم قائلاً:

– ماذا تعنين؟

دفعته بيدها دفعة لم تؤثر به ولم يتحرك على أثرها وصاحت بغضب هادر :

– هل أبدوا أمامك بلهاء أم ماذا؟! .. أنا أعرف كل شيء .. لقد رأيتك وأنت تُقبلها فى الظلام بعيداً عني وكنتما تعتقدان أنى فاقدة للوعى

ثم لوحت بإبهامها فى وجهه وهى تقول بحدة :

– هل تستطيع أن تُكذب عيناي .. الآن فقط أدركت لماذا أهديتها عقد الريحان

عقد بين حاجبيه وهو يقول بجمود:

– غير معقول .. ألهذا رحلتى وحدك ؟!!

هتفت بغضب ساخرة وهى تنظر له بتحدى :

– وماذا كنت تريد .. هل أبقى معكما لأقطع عليكما لحظات الهُيام الخاصة

ثم استدارت وهى تعقد يديها فوق صدرها قائلة بانفعال:

– أحببت أن أترك لكما حرية العشق.. فلا داعى لأن تتوارى بعد الآن أيها العاشق

ولكن أين هى محبوبتك هل تخليت عنها أم هناك أمراً آخر أجهله

لم يستطع أن يتمالك نفسه أكثر من هذا .. كُسر الجمود المرسوم على وجهه ليرسم بحطامه ابتسامة كبيرة على ثغره وهو يرفع حاجبيه مندهشاً وخرج صوته مختلجاً من فرط خفقان قلبه وهو يقول مراوغاً:

– ولكنها تكبُرنى سناً بكثير يا "ياسمينا"

مطت شفتاها باستنكار وهى تقول ساخرة:

– من الواضح أنك تهوى هذا النوع من النساء

أطرق برأسه إلى الأسفل وقد اتسعت ابتسامته وهو يتمتم بصوت مسموع:

– هل جازفتى بحياتك وخرجتى إلى الغابة وحدك من أجل هذا .. فقط ؟!

زفرت بقوة وقالت على الفور:

– دعنا من هذا الأمر فهو لا يعنينى فى شىء .. ما يعنينى الآن هو أن أفهم ما يدور حولى .. وأنت قد وعدتنى من قبل أنك ستقص علي كل شىء

عقد ذراعيه فوق صدره وهو يتفرس ملامحها عن قرب قائلاً :

– من الواضح أنه لا يعنيكى حقاً يا أميرتى

ابتلعت ريقها بصعوبة وتركته متجهة إلى مُهرها واستندت إليها بمرفقها وهى تقول فى كبرياء :

– هل سنظل هنا أم ماذا ؟

ابتسم متعجباً وهو يهز رأسه يمينة ويسرة ثم قال وهو يشير إليها أن تعتلى صهوة جوادها :

– لا .. هيا بنا .. سأقص عليكِ كل شىء فى طريقنا إلى هناك

إعتلت صهوة جوادها والتفتت إليه بشموخ متسائلة:

– إلى أين ؟

ضحك مُداعباً وركل بطن "جسور "بخفة وهو يقول :

– إلى حيث محبوبتى

سارت "عنان" تابعةً لـــ "جسور" تكاد تحترق من إشتعال قلب أميرها فوقها وتوهج حنقها وغضبها عليه حتى صارت بمحاذاته تماماً وهو يشق طريقاً يعرفه جيداً بهدوء ورويه ثم تنفس بعمق وملأ صدره بالهواء العليل قائلاً:

– أسمعينى فقط .. سأقص عليكِ ما حدث منذ عشر سنوات أو أكثر بقليل .. فلا تقاطعينى حتى أنتهى تماماً .

عاد الفضول يتسلل إليها من جديد فأومأت برأسها موافقة وهى تنصت إليه بتركيز شديد فبدء فى الحديث حاكياً:

– منذ سنوات طويلة كانت مملكتنا تعانى من بطش ملك ظالم، أستبد بالحكم سنوات طويلة وعم فى فترة حكمه للبلاد الفساد والظلم والقتل ونهب الحقوق وغيره من كل ما تتخيليه من موبقات ، ولم يكن يسمع الناس وقتها أى اعتراض على ذلك من قائد الجيوش أو قائد الشرطة أو الحرس ، وكان الجميع راضياً بما يحدث فى البلاد ، ومنذ عشر سنوات تقريباً لم يستطع بعض الشباب والفتيان تحمل كل هذا الظلم والبغى فنهضوا جميعاً واجتمعوا للإطاحة بهذا الحاكم الظالم

، وبالفعل تمكنوا من ذلك ، ولكنهم أخطأوا خطأً كبيراً جدًا تسبب فى ما نحن فيه الآن ، إلتفتت إليه "ياسمينا" متسائلة فتابع قائلاً:

– قبل أن يرحل ذاك الحاكم الظالم جعل الحكم والمملكة فى يد قائد الجيوش وأتباعه ولم ينتبه أحد إلى هذا الخطأ القاتل وعاد الجميع إلى منازلهم وهم يظنون أنهم قد انتصروا وأطاحوا بالحاكم الظالم وانتهى الأمر

هتفت "ياسمينا" على الفور:

– معنى ذلك أنهم أطاحوا بالرأس فقط ؟!

هز "جاسر" رأسه نفياً وقال:

– لم يكن الحاكم هو الرأس وحده يا "ياسمينا" .. لقد كانت هناك رؤوس كثيرة والإطاحة كانت لرأس الحاكم فقط .. أما البقية فقد بقى كل منهم فى مكانه يعيث فسادًا ويستبد ويظلم وينتهك حقوق الناس.

أومأت "ياسمينا" برأسها وقد فهمت مقصده وقالت :

– ولماذا لم يبدى أحداً اعتراضه على تولى قائد الجيوش الحكم وهم يعلمون أنه أحد أذرع الحاكم الظالم ؟

ابتسم "جاسر" لفطنتها وقال:

– قد خدع الجميع يا "ياسمينا" وقال أن الحاكم قد طلب منه أن يقتل الشباب والفتيان ولكنه رفض .. ومع الأسف لقد صدقه الجميع إلا واحداً فقط .. " صارم الحكيم "

ألتفتت إليه "ياسمينا" وهى تقول منتبه:

– لقد استمعت إلى هذا الأسم من قبل.. ولكن لا أذكر ماذا قيل عنه وقتها .. من هو

"صارم "

أستطرد "جاسر" فى حديثه قائلاً:

– "صارم" هو الوحيد الذى فطن إلى تلك الخدعة وتحدث كثيراً ولكن أحداً لم يصدقه ولم يستمعوا له .. وتم تسليم المملكة إلى قائد الجيوش ومعه وزير الوزراء الذى عينه الحاكم الظالم قبل الإطاحة به بأيام .. وعادت المملكة كما كانت لا فرق بين الماضى والحاضر سوى عدم وجود الحاكم فى الصورة فقط .

هزت "ياسمينا" رأسها تحثه على الإستمرار فى الحديث فنظر لها نظرة سريعة ثم تابع :

– بعد مرور عدة شهور شعر هؤلاء الفتيان بمدى الخدعة التى تعرضوا لها وبدأوا فى الإعتراض من جديد وطالبوا قائد الجيوش بعزل وزير الوزراء لأنه رجل من رجال الحاكم الظالم وبعد عدة مناوشات تم عزله عن منصبه وبعد شهور أخرى حدثت حوادث الإبادة والقتل من جنود الشرطة وجنود الجيش معاً حتى أنه لم يسلم من القتل الفتيات والنساء أيضاً

شهقت "ياسمينا" وهى تضع يدها على فمها وقالت ملتاعة:

– الفتيات والنساء !!

أوما برأسه مؤكداً وقال:

– نعم يا "ياسمينا" الفتيات والنساء .. بعد ذلك أيقن هؤلاء الشباب أن قائد الجيوش خدعهم وأنه لم يقتلهم فى المرة الأولى ليس حباً لهم ولا خوفاً عليهم وإنما أراد الأمر لنفسه .. أراد أن يخدع الجميع ليتولى هو أمور البلاد ويظل الفساد والسرقة والاستبداد كما هو دون تدخل أحد من خارج منظومتهم .

أرسل زفرة طويلة عميقة وهو يتذكر تلك الأحداث المريرة وتابع :

– جمعتُ أصدقائى ومن اقتنعوا بفكر "صارم الحكيم " وكنا نتبعه ونتعلم منه كل شيء ونسجل كل كلمة قالها وننقشها بداخلنا وهو لم يبخل علينا بشيء أبداً وكان يطلعنا على مجريات الأمور وما سيحدث مستقبلاً طبقا لتوقعاته ومدارسته لتاريخ هؤلاء جيداً .. وبدء كل من يرى نفسه يستطيع أن يحكم البلاد والمملكة يُعلن عن نفسه وانتهى الأمر بين "الصالح" ووزير الوزراء

ضحكت "ياسمينا" رغماً عنها وقالت ساخرة:

– لابد من أنك تمزح .. هل حقاً تقصد وزير وزراء الحاكم الظالم أم شخصاً آخر؟

أوما برأسه مؤكداً وقال:

– بل هو يا "ياسمينا" وزير وزراء الحاكم الظالم كان يريد حكم البلاد ولكن لا تتعجبى هكذا بل إنتظرى حتى تعرفى رأى الناس حينها فيه

رفعت كتفيها بثقة وهى تقول:

– النتيجة واضحة جداً .. بالتأكيد رفضه الناس وربما يكونوا قد اعتقلوه أيضاً

هز رأسه نفيا وهو يبتسم لبراءهما وقال :

– لقد كاد يفوز يا "ياسمينا" .. لولا أن الأكثرية كانت للــملك " الصالح "

إلتفتت إليه بحدة غير مصدقة فأومأ برأسه مرة أخرى مردداً :

– الناس فى بلادنا تنسى سريعاً يا أميرتى والرواة والقصاصين المأجورين والمهرجين والبصاصين وأصحاب المصالح غيروا الحقائق تماماً وهم كُثر.. فلا تستهينى بهم ولا بعددهم أبدًا ولقد كان لهذا العدد فرصة أخرى للإطاحة بالملك "الصالح " بعد شهور من توليه حكم المملكة

قالت متسائلة :

– وكيف ذلك ؟

استطرد قائلاً:

– سأروى لكِ كيف ذلك لاحقاً .. دعينا نتابع الآن الأحداث بترتيبها كما هى

وزفر بقوة قائلاً:

– بعد جهد جهيد إجتمع الناس على تنصيب الملك "الصالح" حاكماً للبلاد بمحض إرادهم وبكامل حرياهم .. حركت "ياسمينا" كتفها متوقعة ما حدث بعد ذلك وتقول بثقة :

– نعم نعم توقعت ما حدث .. لقد أطاح الملك " الصالح " على الفور بقائد الجيوش وقائد الشرطة والحرس وجميع المسؤلين فى المملكة التابعين للحاكم السابق

أبتسم وهو يحرك رأسه نفياً مجيباً:

– لا .. لم يحدث هذا على الفور ولقد كان هذا هو خطأ الملك "الصالح" لقد تركهم عدة أشهر ظناً منه أهم سيعودون إلى رشدهم ولم يفطن لما فطن إليه "صارم الحكيم "

وعندما بدء يشعر بالخطر وبأهم لن يعودوا أبداً أطاح بقائد الجيوش ولكن بعد فوات الآوان فلقد عمل المهرجين والحثالة وقطاع الطرق ومن كانت لهم مصالح مع الحاكم الظالم على إفساد كل شىء يحاول "الصالح " فعله لصالح

المملكة .. وبعد ذلك إرتكب الملك "الصالح" الخطا الثانى .. لقد ظن خيراً فى أحدهم ، برغم من أنه كان قائد بصاصين الحاكم الظالم أيضاً وكان تلميذًا وتابعاً لقائد الجيوش السابق ولكنه وثق به وولاه منصب قائد الجيوش .

قالت "ياسمينا" متسائلة:

– ومن هذا الرجل؟

ألتفت "جاسر إليها ونظر إليها نظرة عميقة قائلاً:

– "سيان الأكبر"

عقدت حاجبيها وتنفست بسرعة أكبر وهى تردد:

– "سيان الأكبر" ؟!!

عند هذه النقطة شعر "جاسر" أن "ياسمينا" ستستمع إليه من وجهة نظر أخرى وستشعر أنه يلمس جزءاً من حياة والدها وأخيها وستتساءل عن كل تفصيله قادمة فأعد نفسه لذلك فى صبر وهدوء واستدرك قائلاً:

– تولى "سيان الأكبر" قيادة الجيوش من بعد الإطاحة بُمعلمه وأستاذه والذى كان أعد لهم كل شيء قبل أن يتركهم ويرحل ليسيروا على دربه وما كان يخطط له سابقاً .. وبدء "سيان الأكبر" فى الظهور بمظهر الرجل الصادق الخجول الحنون والعاطفى .. قال كلمته تلك وابتسم عندما تذكر "صارم الحيكم " ثم تابع قائلاً:

– لقد وثق به الملك "الصالح" بشدة ولم يكن يتكلم عنه إلا بالخير بل أنه غضب وحزن عندما ذكره "صارم " بغير ما يحب ، ولكن "صارم " ظل على موقفه من "سيان الأكبر" وظل يردد عنه نفس الكلمات ويحذر منه بشدة .. واشتعلت بعدها المؤامرات واجتمع أصحاب المصالح على إفشال الملك " الصالح" وزيفوا الحقائق أمام عامة الشعب حتى اقتنع معظمهم بفشله حتى قبل أن يبدأ فى عمله كحاكم للمملكة

قاطعته "ياسمينا" بهدوء وتركيز شديد قائلة:

– وكيف يقتنع الناس بفشله وهو لم يمكث بينهم سوى شهوراً فقط وقد سبقه سنوات طويلة من الفساد ؟!

قال "جاسر" بشرود:

– أقتنعوا يا "ياسمينا" .. وانضموا إلى العدد الذى قد سألتى عنه سابقاً .. العدد الكبير الذى تحطمت آماله فى تنصيب وزير الوزراء حاكماً للبلاد .. وخرجوا جميعاً لعزل الملك " الصالح"

حثته على الحديث سريعاً وقالت فى الحال:

– وماذا فعل "الصالح" حينها؟

– وماذا عساه يفعل وهو مُحاصر بالسلاح والجنود ومُطالب بأن يخرج إلى الساحة ويقول بأنه قد اعتزل حكم المملكة من تلقاء نفسه .. لقد خرج فعلاً إلى الساحة وهو يعلم جيداً أن الابراج حول القصر على كل برج منها سهم موجه إلى قلبه ومُهدد إن لم يقل ما يريده "سيان الأكبر" فسوف يُقتل فى الحال ولكنه أصر على قول ما يراه حقاً

هتفت "ياسمينا " بتوتر:

– قتلوه ؟ !

هز رأسه نفيا وقال :

– لا بل اعتقلوه وزُج به فى السجن .. ثم خرج "سيان الأكبر" إلى الساحة معلناً الإطاحة بالــ" الصالح " .

ألقى إليها نظرة خاطفة وهو يقول ببطء:

– وقام بتنصيب قاضى القضاة منصب حاكم المملكة

ابتلعت "ياسمينا" ريقها بصعوبة وقد تذكرت عندما قال لها "جاسر" ان أباها كان قاضى القضاة فى الماضى وقالت بتردد كبير وترقب:

– تقصد ؟

مط شفتيه وهو ينظر لها مشفقاً وقال :

– نعم .. إنه "المنصور".. والدك

نظرت له بحدة وهتفت :

– غير معقول .. والدى أنا شارك فى هذا الظلم .. لا أصدق

نظرت أمامها فى شرود ثم عادت إليه بحدة أكبر هاتفة :

– إن كان ما تقوله صحيح فلماذا لم يتولى "سيان الأكبر" أمور البلاد حينها كما كان يرجو لماذا إحتاج إلى والدى ونصبه حاكماً

لم تغادره النظرة المشفقة إليها وهو يقول مجيباً:

– لقد كان سيفعل ولقد كان الطريق مفتوحاً أمامه لذلك لولا أنه .. مات

زاغت نظراتها فى حيرة وهى تقول:

– مات .. كيف ذلك ؟!

ركل "جسور" ببطنه ليسير بخطوة أسرع مما هو عليه وتبعته" عنان " وقد صمت قليلاً وهى تنتظره ليتابع على أحر من الجمر وأخيراً تحدث مستطرداً:

– بعد ما تم تنصيب والدك حاكماً للبلاد أصدر "سيان الاكبر" أوامره لجنوده بقتل كل من يتحدث أو يعترض على تلك القرارات وبالفعل صارت مقتلة عظيمة كالنار فى الهشيم وامتلات السجون عن آخرها لكل من يعترض أو حتى يتعاطف مع "الصالح" أو أحداً ممن يُقتلوا كل يوم فى المملكة

ولقد كان لتلك الأوامر صداها المرجو منها .. لقد لاذ الجميع بالصمت وآثروا السلامة خافوا على أنفسهم ونسائهم وأطفالهم وأرزاقهم ورضوا بما حدث كأمر واقع ولم يتبقى سوى "صارم" فقط ، ولذلك صدرت الأوامر بقتله فى الحال هو ومن معه وبأى ثمن .. واستطعنا فى ذلك الحين أن نُقنع "صارم" بالتخفى والإبتعاد قليلاً وابتعدنا معه بعيداً عن أعين جنود "سيان الاكبر" .. ومن الجانب الآخر هلل وفرح كل من خرج ضد "الصالح" هم وكل من لُوِثَت عقولهم بالأكاذيب والتزيف و هم يتصوروا أن الأمور ستتحسن وسيعيشون فى رغد وأن "سيان الأكبر" سيضع لهم جنة السماء على الأرض ولكن ما حدث كان على العكس تماماً

ملأ رئتيه بكثير من الهواء وهى تنظر إليها ، متوجسة تنتظره ، وعندما طال صمته قالت بجمود:

– وهل كنت ممن هربوا مع "صارم "

إلتفت إليها وهو يومىء برأسه قائلاً:

– نعم .. لقد كنت فتى فى التاسعة عشر من عمرى حينها ولقد قُتل أبواى على يد جند

" سيان الأكبر" ولم يتبقى لى سوى أستاذى "صارم الحكيم" ومُربيتى العزيزة

" مودة" ولكنها رفضت أن تأتى معى وأصرت أن تبقى بجوارك يا "ياسمينا"

تنبهت جميع حواسها وهى تنظر إليه بعمق تكاد تخترقه بنظراتها وهى تردد بصوت مضطرب:

– "مودة" .. مُربيتُك !!

ارتسمت ابتسامة مرحة على ثغره وهو ينظر أمامه متجاهل النظر إليها ويقول :

– نعم .. مُربيتى التى رأيتينى أُقبلها فى الظلام

قالت متلعثمة:

– ولكنى رأيتك وأنت..

قاطعها على الفور:

– لم أُقبل سوى جبهتها يا أميرتى وأنا أودعها لتلحق بالــ"الصارم" ولكن الغـــيرة أعمتك

شحب وجهها وهى تشعر بجفاف حلقها وخفق قلبها بين ضلوعها بقوة وهتفت بحدة يغلفها الخجل من كل جوانبها :

– لا تتوهم ذلك أيها المغرور وهيا تابع السرد .. وماذا حدث بعد ذلك ؟

أبتسم ثم ضحك مقهقهاً دون أن يتلفت إلى أشتعال وجنتيها وعندما هدأ أشار إلى نيران بعيدة وهو يقول براحة كبيرة :

نعم سنتابع سرد حكايتنا ولكن بعد أن نصل إلى خيامنا التى ظهرت نيرانها هناك .. أنظرى

****

الفصل الأخير

عقد "صارم الحكيم" حاجبيه بتسلية داخل إحدى الخيام وهو ينظر إلى "جاسر" الذى زينت ثغره ابتسامة حائرة قلقة وقد طالت فترة صمته مما جعل "جاسر" يقول بدفاعية :

– صدقنى يا مُعلمى .. لقد كنت أنوى أن آتى قبل ذلك بكثير لولا اختطاف اللصوص لها كما قصصت عليك

تنحنح "صارم" فانتبه "جاسر" لما سيقوله مرهفاً سمعه بترقب مما دفع "صارم " لأن يقول بحنو:

– قلت انها قد صُدمت عندما أخبرتها أنت بما فعل والدها فى الماضى

أومأ "جاسر" برأسه موافقاً ثم قال موضحاً:

– نعم فهو والدها على أية حال .. ولكن تعليقاتها على حديثى كلها كانت متوازنة وكأن فطرتها تدفعها نحو الحق بلا مواربة .. صدقنى يا مُعلمى "ياسمينا" مختلفة تماماً كما كانت تخبرنا "مودة" كثيراً من قبل .. ثم أنها لم يعد لديها أحداً غيري بعد الآن

اتسعت عيني " صارم" وهو يقول مشاكساً:

– و" مودة" أيها الجاحد .. هل نسيتها

أبتسم "جاسر" وهو يقول بخفوت :

– "مودة" مربيتها .. أما أنا ..فسأكون زوجها

قهقه "صارم" عاليا فانتفض " جاسر" واقفاً وهو يهتف بسعادة:

– إذن فقد وافقت على زواجنا يا مُعلمى .. صحيح؟

نهض "صارم" بوقار قائلاً:

– إهدأ يا ولدى .. لابد من رأى العروس أولاً .. فهو شانها وحدها .. أين هى الآن

– فى الخارج بصحبة "مودة" .. وتريد التحدث إليك

بمجرد خروجهما وقع نظر "جاسر" على "ياسمينا" قادمة من بعيد بصحبة " مودة" التى أشارت إليه وهي تتحدث إلى "ياسمينا" قائلة:

– هاهو "جاسر" بصحبة "صارم الحكيم "

نظرت "ياسمينا" إلى "جاسر" ثم توجهت عينيها تلقائياً باتجاه "صارم الحكيم " فشعرت أنها رأته من قبل ولكنها توجست خيفة، فالجميع فى ذلك المكان يعلمون من هى ، "ياسمينا" ابنة القاضى المنصور الذى سمح لنفسه أن يصبح لعبة فى يد "سيان الأكبر" يوما ما ،وقتل ضمير الحق بداخله .

زال بعض توترها عندما رأت "صارم" تنفرج شفتيه عن ابتسامة ودودة وهو يتابع اقتراب "جاسر" منها والذى كان يسرع بإتجاهها وبمجرد أن وقف أمامها قال بإشفاق :

– هل أنتِ بخير ؟

أومأت برأسها وهو تقول بانكسار :

– نعم

لاحظ "جاسر" ملامح الحزن بوجهها فقال على الفور:

– ماذا بكِ يا "ياسمينا"

تحدثت "مودة" قائلة:

– إنها تخشى من وجودها هنا.. وتظن أن الجميع يكرهونها

أطرقت "ياسمينا" إلى الأرض بحزن وهى تستدرك قائلة:

– ومعهم كل الحق فى ذلك فأنا ابنة المنصور الذي..

عقد "جاسر" حاجبيه ونظر لها معاتباً وهو يقاطعها قائلاً:

– "ياسمينا" .. ألا تثقى بى ؟

حاولت أن تعقب ولكنه قاطعها مرة أخرى مؤكدًا :

– كيف تخشى من أى شيء وأنا بجوارك .. الجميع هنا يعلمون أنك ليس لك ذنب فيما حدث وأنك مختلفة عنهم

قالت "مودة" مؤكدة:

– نعم يا "ياسمينا" فأنا كنت دائما أخبرهم فى رسائلى بأنكِ مختلفة .. ولم يكن عندك علم بما حدث فى الماضى.. إطمئنى يابنتى

نظر لها "جاسر" بعمق ثم أرسل تنهيدة قوية وقال:

– دعكِ من هذا الحديث الآن .. "صارم الحكيم" ينتظرك لتخبريه بما لديكِ

إقتربت "ياسمينا" على استحياء وبخطوات مترددة باتجاه "صارم" الذى ابتسم لها ليطمأنها،

وقفت أمامه و"جاسر" وقف بجوارها و"مودة" إلى الجانب الآخر ، وقال لها "صارم" على الفور:

– مرحباً بك بيننا يابنتى

ابتسمت ابتسامة صغيرة بينما حثها "جاسر" على الحديث بنظراته لها فبدأت فى سرد ما حدث لها عند اللصوص وما قاله أمامها زعيمهم بشأن اختطاف والدها ووضعه بأحد السجون وأنهت حديثها وهى تقول برجاء :

– أرجوك أيها المُعلم لا تدعهم يقتلون والدي .. أعلم أنه أخطأ بل وشارك فى الظلم أيضاً ..ولكن فى النهاية هو والدي ..وأنا أخشى عليه من أخى "سيان"

أكتسى وجه "جاسر" بالألم لأجلها بينما صمت "صارم" للحظات ثم رفع عينيه إليها قائلاً بعطف:

– كنا قد أعددنا العدة للعودة يابنتى فقد حانت لحظة النهاية .. وأعدك إن نُصرنا فسيحصل والدك على محاكمة عادلة .

أومأت برأسها مدركة أنها بالفعل كل ماتريده فى تلك اللحظة أن ينجو والدها من القتل على يد "سيان" ، أما المحاكمة فستكون أخف الضررين بالنسبة لها فهو أخطأ بالفعل .

إلتفت "صارم " إلى "جاسر" بعينين متفكرتين وقد بدأت خيوط العودة تتجمع برأسه وقال على بهدوء وقد أُوقدت شعلة التدبير بعقله:

– أرسل إلى فتياننا فى المدينة وأخبرهم أننا سنلحق بهم واطلب منهم تكثيف حديثهم مع الناس فى كل مكان حتى نعود ثم ينضموا إلينا ومعهم من وافق بالنضال معنا

ظهرت ابتسامة متفائلة منتصرة على وجه "جاسر" وهو يومىء بالموافقة ، وهم بالإنصراف على الفور ولكن "صارم" استوقفه قائلاً:

– إنتظر لا تذهب أنت اليوم.. بل أرسل أحد الفرسان ممن يعرف الطريق إلى المدينة ويستطيع أن يتواصل مع مجموعة الفتيان كما اتفقنا

قال "جاسر" متعجباً :

– ولماذا لا أذهب أنا؟!

أشار "صارم" بابتسامة مرحة إلى "ياسمينا" وهو يقول مشاكسا:

– هل سمعت يوما عن رجل ترك عروسهُ ليلة زواجه وذهب فى مهمة بين الأحراش

إنتفض قلب "جاسر" واتسعت ابتسامته وهو ينظر بامتنان إلى "صارم" بينما تبادلت "ياسمينا" النظرات مع "مودة" غير مصدقة لما تسمع وهى تُتمتم بخجل :

– ماذا ؟!

أشار"صارم" برأسه إلى "مودة" أن تغادر ، ثم هم هو بالإنصراف وهو يقول مستطردًا:

– تفاهما فى الأمر ثم الحقا بي

قال كلمته الأخيرة وانصرف هو و"مودة" وتركهما ليقول كل منهما ما لديه للآخر، فلابد وأن توافق العروس أولاً .

إستدار "جاسر" إليها بجسده كله ينظر إليها بسعادة مُغلفة بالحنان ثم قال بخفوت :

– فى كل مرة كنت أتحدث فيها إلى "صارم" كان يقرأ عيناي ويجيبنى عما يدور بخلدى دون أن أتفوه به .. أما اليوم فلقد قرأ ما يدور بقلبى .

أطرقت "ياسمينا" برأسها خجلاً واضطرابا وهى تفرك كفيها توتراً ولم تستطع أن تتفوه أو حتى تنظر إليه مما جعله يشعر بالقلق ويقول بترقب:

– "ياسمينا" .. لكِ كامل الحرية فى قول لا .. ولن يجبرك أحد على شيء لا تريدينه .. ولكن لا تصمتى هكذا

أرادت أن تغير مجرى الحديث من شدة الخجل الذى غلفها وطبع بصمته على وجنتيها بوضوح

فقالت :

– هناك الكثير لم تقله لى .. أريد أن أعرف .. كيف مات "سيان الأكبر" وكيف ظل والدى يحكم المملكة ولماذا أصبح "سيان " أخى هو الحاكم الفعلى وتوارى أبى إلى الظل ؟

ظل "جاسر" ثابتا وهو ينظر إليها مليا وقال :

– هل تتهربين من الإجابة ؟

ثم مط شفتيه وهو يعقد ذراعيه أمام صدره قائلاً بحزن:

– أنتِ ترفضيننى يا "ياسمينا"

رفعت رأسها مسرعة وهى تهتف بخفوت :

– أنت مخطىء .. أنا لم أقصد هذا

ثم أطرقت برأسها مرة أخرى على الفور ، قبل أن ينظر إليها واستدارت توليه ظهرها وهى مازالت مكانها ، ألتف "جاسر" حولها ووقف قبالتها وهو يرفع رأسها إليه قائلاً:

– سوف أروى لكِ ما تريدين معرفته .. ولكن أجيبينى أولاً ..هل أنتِ موافقة على الزواج بى؟

أشاحت بوجهها بعيدًا وهى تبتسم بحياء قد غلبها وتحرك رأسها بنعم ، لم تكن فى حاجة إلى موقف درامى لتقتنع بأنها تحتاج إلى "جاسر" كزوج لها ، هى تحبه ،ولقد أصبح كل عائلتها هو و"مودة" ،بعد أن فقدت والدها وهاهى مطاردة من أخيها وعصابته والعودة أوشكت بعد أن حانت لحظة وضع كلمة النهاية على ما حدث منذ سنوات ، بالتأكيد سيحدث قتال وهى تخشى على "جاسر" بشدة فلما لا تنعم بعاطفته قليلاً وبالقرب منه قبل أن تبدأ ساعة الحسم .

أرسل تنهيدة حارة وقد اتسعت ابتسامته وهتف بحماس وسعادة :

– الآن سأروى لكِ كل شيء .. ولن أصمت حتى الصباح .. ولكن ذكرينى عند أى نقطة فى السرد كنا قد توقفنا ؟

قالت على الفور وهى تبتعد برأسها قليلاً لتتجنب الأصطدام بأحد فروع الأشجار فى طريقها:

– لقد توقفنا عندما صارت مقتلة عظيمة فى كل من يعترض على ما فعله "سيان الأكبر" بعدما أطاح بالملك "بالصالح" وأصدر الأوامر بعد ذلك بقتل "صارم الحكيم " ولهذا أقنعتموه بالتخفى والهرب بصحبتكم

أومأ "جاسر" برأسه وهو يلملم شتات أفكاره ويستدعيها من خزانة السنوات الغابرة ثم قال وهو يمشى بجوارها ببطء عاقدًا ذراعيه أمام صدره:

– نعم لقد تذكرت .. أستطاع "سيان الأكبر" بعد ذلك أن يكمم الأفواه إما بالمناصب والمال وتلاقى المصالح وإما بالسلاح والقوة والغصب .. بحثوا عنا كثيرا ولكننا كنا قد اختفينا تمامًا فى الغابة واتخذناها مأوى لنا فترة ليست بالقصيرة فى عمر الزمن واتفقت أنا ومن معى وكنا جميعا بين مرحلتى الصبا والشباب أن نُقَسم أنفسنا إلى مجموعات مجموعة تتدرب على السيف والرماية ومجموعة تعود إلى المدينة متخفية تندس بين الناس وتحاول إيقاظهم من غفوتهم وتوضح الحقائق الغائبة وتختفى سريعًا دون أن يشعر بعملهم هذا أحد من جند "سيان الأكبر" أو بصاصيه .. وفى يوم من الأيام استيقظنا على خبر مقتل "سيان الأكبر"

إلتفتت إليه "ياسمينا" متسائلة وقد توقفت عن السير:

– من الذى قتله ؟

أجابها بحيرة صادقة :

– حتى الآن لا نعلم من هو .. لم يكن وقتها من المهم أن نتعرف عليه.. يكفينا ما فعله .. ويكفينا الخبر

رفعت حاجبيها وهى تهتف بإستنكار :

– ولماذا لم تعودا إلى المدينة بعد ذلك

أشار لها أن تكمل سيرها بجواره وهو يقول :

– ألا زلتى لا تفهمين الأمر يا "ياسمينا" ؟ .. المشكلة لم تكن تكمن فى شخص "سيان الأكبر" فقط لقد كانت منظومة الفساد والظلم متكاملة حقا وقائد الشرطة والحرس كان من أحد الطغاة الذين يسفكون الدماء دون أن يرمش لهم جفن .. ونحن لم نكن قد تمكنا من التدرب على حمل السيوف بشكل كافى ولم تكن سواعدنا قد اشتدت بعد

مالت برأسها إلى اليمين قليلاً وهى تقول متسائلة:

– هل كانت العودة و القتال ضمن خططكم فى ذاك الوقت

أومأ برأسه موافقاً وهو يقول:

– أنا وأصدقائى كنا متحمسين جدا لذلك ولقد كان "صارم " رافضاً لفكرة القتال فى البداية وكان يظن أن مجموعة الشباب التى تعمل على توعية الناس هم أفضل منا بكثير ولكن بعد ذلك عدل عن رأيه ورأى بأن استرداد الحقوق تحتاج إلى القوة إلى جانب التوعية أيضاً .. وبدأنا نتدرب على كل أنواع فنون القتال وساعدنا فى ذلك أخل الخبرة الشرفاء حتى أصبحنا كجيش صغير وأصبحت منطقتنا تلك بمثابة معسكر على أهبة الاستعداد فى انتظار ساعة الحسم فى أية لحظة .

نظرت إليه تحثه على متابعة الحديث فقال متابعاً:

– بعد موت "سيان الأكبر" أصبح والدك "المنصور" هو الحاكم الفعلى للبلاد .. وعن يمينه قائد الشرطة والحرس .. وعن يساره قائد الجيوش الذى تم ترشيحه له .. وبالطبع كان من أشد المخلصين لـــ "سيان الأكبر" ويسير على الخطى التى رُسمت له مِن قِبَل قبيلة "بني هوذ" .

توقفت "ياسمينا" عن السير للمرة الثانية وهى تبتلع ريقها بصعوبة وقد شعرت بغصة فى حلقها وهى تسأل متخوفة من الإجابة :

– وهل والدى كان على علم بمخطط قبيلة "بني هوذ"

نظر لها بإشفاق وهو يحاول ألا يجرح مشاعرها:

– لم يكن إلا مجرد أداة يا "ياسمينا" .. لقد استخدموه كغطاء لهم وأصبح والدك هو صورة الحاكم فى المملكة .. ولقد تركوه يظن ذلك سنيناً طويلة حتى يشتد عود أخيكِ "سيان"

تحسست جبينها باضطراب وهى تتسائل:

– وما علاقة "سيان" أخى بتلك القبيلة ومخططهم

أقترب منها وهو يقول بحنان :

– ماذا بكِ ..هل أنتِ متعبة؟

قالت بتوتر واضطراب:

– لالا من فضلك أكمل

عقد "جاسر" بين حاجبيه وقد عزم على مصارحتها قائلاً:

– علاقة وثيقة يا "ياسمينا" .. والدته كانت ابنة أحد أكبر زعماء قبيلة "بني هوذ"

استندت "ياسمينا" إلى الشجرة الكبيرة التى كانت تمر بجوارها وهى تقول بأنفاس متقطعة :

– والدتى ؟! ..

أخذ ينظر لها بتعاطف كبير وهو لا يعلم كيف يخفف عنها وقع تلك الصدمات المتكررة ثم قال بهدوء:

– والدتك ليست هى والدة "سيان" أخيكِ يا "ياسمينا"

صمت قليلاً يرقب قسمات وجهها التى تصرخ بالاستنكار والحيرة ثم قال مستدركاً:

– لقد كان والدك المنصور متزوجا بامرأة أخرى وهى ابنة كبير زعماء قبيلة " بني هوذ" وأنجب منها أخيكِ "سيان" وبعد أن فارقت الحياة بسنوات تزوج والدتك أنتِ .. وأنجبك منها .. كنت أظن أنك على علم بالأمر فى بادىء الأمر ولكن "مودة" أخبرتنى أن أحدًا لم يخبرك بالأمر.. وخاصة أن والدتك كان تتعامل مع "سيان" بتعاطف وكأنه ولدها .

ولكنه لم ينسى مازرعته والدته بدمه وأرضعته إياه.. لقد نقشت بداخله أن انتماءه الأول والأخير هو لقبيلتها فقط .. ولا يجب أن يعمل شيء إلا لمصلحتها وفقط ولهذا تركوا والدك يحكم المملكة سنوات وهو يظن نفسه الحاكم الفعلى ولم يكن ذلك إلا لأنهم كانوا ينتظرون فقط أن يصبح "سيان" مستعدًا وقادرًا لتولى أمور المملكة

مسحت براحتها حبات العرق الوهمية فوق جبينها وقد شحب وجهها وهى تردد بذهول:

– وإذا كانت قبيلة "بني هوذ" ترغب فى حكم بلادنا لماذا لم تتدخل مباشرة وانتظرت كل تلك السنوات ؟

استند إلى الشجرة بجوارها بكفه وهو يجيبها قائلاً:

– لأنهم يعلمون أن عامة الشعب تكرههم وفى ذلك الوقت لم يكن شعبنا بعد قد نسى هذا الكره والعدواة التى بيننا وبينهم ولقد كانوا متأملين أن الزمن والمصالح وإفساد العقول سيسهل الأمر عليهم كثيرا .. ولقد حدث ما أرادوه.. أنفقت قبيلة "بني هوذ" أموالاً طائلة للرواة والقصاصين والبصاصين والمهرجين ومطلقى الإشاعات سنوات وسنوات .. وبالفعل أفسدوا عقول الكثيرين حتى أن عامة شعبنا بعد أن كانوا متعاطفين مع مجموعة من الشباب كانت تحارب تلك القبيلة التى سطت على بلادهم الصغيرة أصبحوا يصفونهم الآن بالقتلة والإرهابيين .. وعندما حاول الملك "الصالح "

مساعدة هؤلاء الشباب بمساعدات بسيطة كأن يسمح لهم بالمرور مثلا عبر بلادنا إلى بلادهم خلسة بدأوا يتهموه أنه خائن وعميل لهم.

زاغت أنظار "ياسمينا" وهى تردد غير مصدقة :

– هل استطاعوا إفساد عقول الناس حتى أصبح عندهم الضحايا مُعتدين وقتله !

هز "جاسر" رأسه بضيق وهو يقول مؤكدًا :

– نعم ولهذا عندما طلبوا فى الآونة الأخيرة إرسال بعض رجالهم بداخل بلادنا لم يستنكر الشعب هذا الفعل .. لقد انشغل الجميع بجمع الأموال والبحث عن الرزق وحماية أنفسهم من قطاع الطرق فكيف سينتبهون لحماية حدود مملكتهم

عقدت "ياسمينا"حاجبيها وهى تتسائل :

– وكيف استطعت أنت أن تصل إلى القصر بهذه السهولة ؟

رفع كتفيه وهو يقول ببساطة :

– طيلة السنوات الماضية وأنا أتدرب على الرماية ووجدت فى نفسى ميلاً كبيرًا لها .. ظهرت مهارتى التى لا يضاريني فيها أحد .. ورغم اعتراض "صارم" على ما كنت أنويه إلا إننى تسللت إلى المدينة خفية عندما أنبأنى أصدقائى عن مسابقة سيقيمها قائد الجيوش ليضم إلى الجيش رجال أشداء ماهرين ..إشتركت فى المسابقة بمساعدة أحد المخلصين وفزت فيها بالمركز الأول وأعجب قائد الجيوش بمهارتى كثيرًا وألحقنى بصفوف الرماة ومع الوقت استطعت أن أصل بمهارتى إلى أن أصبحت قائد الرماة .. وبمساعدة"مودة" استطعت أن أحصل على ذاك البيت الذى لا يفصله عن الغابة سوى جدار واحد .. وهكذا كان الأمر

نظرت إليه بعمق وقلبها ينتفض خوفا من إجابة سؤالها التالى ولكنها تنفست بعمق ثم أطلقت زفرة حارة وقالت:

– هل كان تدريبى على الرماية ثم مساعدتك لى ضمن مخططك يا "جاسر" ؟

جمع كفيه أمام وجهه وهو يغمض عينيه قليلاً ثم يفتحها قائلا بصدق:

– لم تكونى ضمن مخططاتى فى يوم من الأيام .. ولم أكن أعلم أنهم سيستدعونى لتدريبك على الرماية ... منذ أن رأيتك للوهلة الأولى وأنا أشعر بضعفك وإحتياجك لى رغم الغطرسة التى كانت تغلف حديثك معى وتحاول أن تخفى ما ورائها

.. وتأكدت أكثر عندما أخبرتنى "مودة" بدافعك لتعلم الرماية .. لهذا تحديت الجميع وألححت على خروجك من القصر وأن تنتقل ساحة التدريب إلى بيتى وبستانى .. وكان أصدقائى ينتظرون منى إشارة البدء للتحرك وحسم المعركة التى سنواجه فيها الطغاة

تساءلت بفضول لم تستطع التحكم به :

– ولماذ لم تفعل ؟

ابتسم بحب وهو يقول باهتمام:

– كنت أريد أن أخرجك من القصر أولا أنتِ و"مودة" .. لتكونا بعيدتين عن ما سيحدث .. فمنذ أن شعرت باحتياجك لى وأنا أرى نفسى مسئولا عنك وعن حمايتك .

إلتفت إليها بعد أن أنهى كلمته الأخيرة فوجدها قد بلغ الشرود منها مبلغه وأخذ يرسم بريشته الحائرة فوق ملامحها الشاحبة .. دنى قليلاً منها وهو يقول بجدية :

– "ياسمينا" .. سنتحرك قريبا وسنعود للمملكة وأنا على يقين بأن بعض العامة ستتحرك معنا وتنضم إلينا فلا تخافى.

رفعت رأسها إليه بابتسامة مغتصبة من قلب مرتعد فقال مستدركًا بمرح :

– أريد أن نقيم مراسم زواجنا الليلة .. فأنتِ لم تتدربى بعد على إصابة الهدف المتحرك

لم تستطع أن تخفى ضحكتها الرقيقة وهى تشيح بوجهها بعفوية ، رفعت كتفيها باستسلام وسعادة وهى تسير بجواره باتجاه "صارم " و" مودة" لتخبرهما بموافقتها على إقامة الزفاف قبل عودتهم إلى ديارهم التى افتقدوها منذ سنوات .. فالليلة هى ليلة عُرسهما رغم كل شيء! .

إنتهت مراسم الزواج وابتدى عطر النسمات يلفحهما ويعصف بهما بعيدًا ، مبحراً على متن الشوق الهادر بين أمواج عاتية تداعب شذرات ماءها الباردة وجهيهما مشاكسة ، ولكن هيهات أن يلتفتا إليها مهما زادت برودتها ومهما كثرت مشاغبتها ، حتى خاب أملها فانحصرت وهدأت وانسحبت بهدوء مفسحة المجال لخيوط الشمس التى أوشكت على الانسدال بلمعتها الذهبية الحارة تتكفل هى بمداعبة جفنيهما لتعيد سفينة حبهما المبحرة رغما إلى شاطىء النهار اللامع ، الذى جاء خصيصًا لينير طريق تلك الخيول الضارية التى تشق الغابة شقًا فى طريقها إلى بلادها ومملكتها ، معلنة انتهاء وقت الخضوع والهرب والتراجع .

وعلى غير المعتاد كان جواد "جاسر " هو آخر تلك الخيول ، فلقد عمد إلى أن يجعل جواده فى المؤخرة حتى يستطيع أن ينعم بقرب حبيبته وزوجته "ياسمينا" دون أن تراقبهما أي من العيون، أحاطها بذراعه وأحكم قبضته على لجام جواده بيده الأخرى وهو يقول برضا :

– هذا أفضل بكثير

إلتفتت برأسها إليه تسأله بخجل:

– لماذ أرغمتنى على ترك "عنان" بصحبة "مودة" فى المقدمة .. أنا لا أكاد أراهما بوضوح

ابتسم وهو يحث "جسور" على السير البطىء :

– أريد أن أنعم بقربك قليلاً حبيبتى

إعترتها موجة مفاجئة من القلق والإضطراب وتخللت قلبها الذى كان يخشى العودة مما جعلها تقول بشرود:

– لماذا نحن عائدون يا "جاسر" .. لماذا لا نبقى بعيدًا.. أخشى عليك

شعر برجفتها فأراد أن يطمئنها قائلاً:

– قلت لكِ من قبل لا تخشي شيئا حبيبتى .. الأخبار التى وصلتنا الآن أنبأتنا بتحرك عدد كبير من عامة الشباب يستعدون إلى الخروج لملاقاتنا والانضمام إلينا ..كما أن مجموعة المحاربين الذين يجاهون "بني هوذ" بدأوا مناوشات معهم منذ الصباح لينشغلوا بهم عما نقوم به الآن..فبذلك نكون قد قطعنا المدد عن "سيان" وعصابته .

لم تجبه ولم تستطع أن تروض خوفها ، كل ما فعلته فقط أن استكانت ملقية برأسها للخلف على صدره والنسمات تداعب شعرها الذى يثور و يلوح بكبرياء أمام وجهه فيضمها أكثر وهو يحاول أن يخفى بعض ما تسرب إليه من قلقها .. ليس خوفا من المواجهة ولكن خوفاً من خذلان العامة من الناس فمن تربى على الذل من الصعب أن يتفهم معنى الكرامة ويثور لأجلها.

مرت الخيول بمن عليها عبر باب حديقة "جاسر" القابعة حول بيته وبستانه بهدوء وهنا بدأ التحرك بترقب وحذر ولكن بثقة ، "صارم" يتقدمهم جميعاً بجسارة وما أن بدأت الخيول عبور بوابة الحديقة الرئيسية إلى المدينة ، تفاجأ الحُراس الذين كانوا على أبوابها بأعداد الخيول المقتحمة ووجوه قد غابت عنهم لسنين مما أدخل الرعب فى قلوبهم بل ومنهم من ظن أنهم أشباح عادت للإنتقام ، فر البعض خوفًا وتلكأ البعض الآخر قليلاً قبل أن يلحقوا بزملائهم هاربين ، مما أتاح للعائدين العبور بسلام والتوجه مباشرة إلى القصر الملكى ، فى الطريق وعند مكن محدد تم الاتفاق عليه مسبقاً تلاقت

معهم مجموعة الشباب الذسن كانوا ينتظروهم ، أزدادت أعدادهم كثيراً ثم بدأوا يمرون بالطرق والأسواق عامدين إلى ذلك ليشعلوا الهمة بنفوس العامة ويكسروا حاجز الخوف بداخلهم . أنضم إليهم بعض الفتيان بحماس من هذا الخان واحداً ومن ذاك البيت آخر ، وفى الشرفات وقفت الأمهات تنادى فتيانها بالعودة وتتهمهم بالجنون ،ولحق بهم بعض المقهورين والمظلومين من اليتامى الذين تيتموا بسبب صاع من الحبوب أو أقل ! .

كانت المرأة التى أخذوا زوجها من بين أيديها وتركوها هى وابنتها وحيدتين بسبب الضرائب تنحنى لتنفض ذرات التراب عن الخضروات المعروضة فى الطريق بينما ينهرها صاحب الخان ويدفعها بكتفها بقسوة زاجراً:

– نظفى جيداً أيتها العجوز وإلا فلتبحثى عن غيرى يطعمك أنت وفتاتك تلك التى لا تجيد مسح الأرضية جيداً

نظرت المرأة لابنتها فوجدتها تنحنى على استحياء بقطعة من القماش فى يدها فى محاولة يائسة لتنظيف الأرضية دون أن تظهر مفاتن جسدها التى يلتهمها صاحب الخان بعينيه الوقحتين ، شعرت المرأة بالقهر واغرورقت عيناها بالدموع ، وقبل أن ترفع كم جلبابها لتجفف به دموعها سمعت الصهيل المتواصل للأحصنة يقترب صوته شيئا فشيئا فظنت أن الشرطة ستمر بهم كالعادة ولكن الصياح اختلط بصوت الصهيل وازدحمت الطرقات بالناس واندفعت امرأة صارخة للداخل نحو صاحب الخان وأخذت تصرخ به :

– أغثنى يا زوجى .. أنقذ ولدك .. لقد تركتنى ونزل مهرولاً من المنزل ليتبع "صارم الحكيم" وفرسانه

نظر لها الرجل بذهول وهو يزدرد ريقه الذى جف فى حلقه وهو يتمتم غير مصدق:

– "صارم" .. هل .. هل عاد ؟!

صاحت المرأة وهى تتشبث بتلابيبه وتهزه بقوة ليفيق:

– هل ستقف هنا مذهولاً وتترك ولدك للشرطة والجنود يقتلونه مع فرسان "صارم" .. لقد لحقهم الجنود وهم على وشك التقاتل .. هيا لنعيده بالقوة إن لزم الأمر .. لن أترك ولدى يقتل معهم هكذا ..تحرك يا رجل .. هذا ولدك

ظلت تهزه وهو يرتعد خوفاً وبينما هما على حالتهم تلك ، لم يشعرا بانسحاب المرأة من الخان وهى تمسك يد ابنتها وما إن خرجا وابتعدا قليلاً ، وقفا يشاهدا الصورة بشكل أوضح ، ويسمعون صراخ الأمهات من الشرفات على أولادهم الذين يهرولون للحاق بالفرسان العائدون .

ربتت الفتاة على كف والدتها الشاردة متسائلة:

– ما بكِ يا أمى .. أنت خائفة؟!

صمتت الأم للحظات قبل أن تُتمتم فى شرود وكأنها تهلوس:

– الجنود يلاحقونهم .. سيفتكون بهم لا محالة .. سيقضون على آخر أمل لنا !

أطرقت الفتاة بانكسار وتحرك رأسها بهزيمة ولكنها لم تدم لثوان ، حيث جذبتها أمها من يدها بقوة وهى تسير نحو الشرفات الصارخة وتقول لابنتها وعينيها تلمع بقوة :

– أفعلى مثلما سأفعل تماما .. لابد من خدعة ما

ثم فجأة بدأت تصرخ وهى ترفع رأسها نحو الشرفات بحماس كبير ولوعة مكذوبة :

– هل ستقفن هكذا تنتظرن اخبار مقتل فلذات أكبادكن .. إن كان الرجال قد جبنوا فنحن لها .. هيا لنلحق ابنائنا فنعيدهم بالقوة إلى المنازل قبل أن تصل السهام إلى قلوبهم

فعلت ابنتها مثلها وتماما وبدأت بالصياح كما تفعل أمها وتحث الفتيات على اللحاق بأخوتهم ، وبالتأكيد عندما يشاهد الأخوة الفتيات يلحقن بهم سيعودون حتى من باب سترهن فى بيوتهن

ونجحت الخدعة فى بساطة تتناسب مع بساطة المرأة وابنتها ، بدأت النساء تهرول بملابس المنزل لتجبر الأزواج على التحرك ، وفى غضون دقائق كانت الطرقات قد امتلأت عن آخرها بنساء وفتيات تهرول ورجال يتبعوهن بصراخ وصياح وخرج خلفهم من يحبون المشاهدة بفضول وعم الهرج والمرج فى المدينة .

قبل أن تتحرك الجنود لقتال الفرسان وقد استوا سيوفهم باستهانة وهم يرون أعداد الفرسان قليلة بالنسبة إلى أعداد جيشهم الضخم ، مال كبير البصاصين نحو أذن قائد الجيوش قائلاً بخفوت :

– سيدى .. مازلنا حتى الآن نجهل الأمور عند قبيلة "بني هوذ" .. هناك قتال عنيف وهم منشغلون عما يحدث هنا سيدى

نظر قائد الجيوش امامه بتفكير وهو يحصى أعداد الفرسان القادمون والفتية والشباب يتبعونهم مشياً على الأقدام بخطوات حماسية سريعة نحو القصر ثم هز رأسه بجمود آمراً:

– أنتظروا حتى يقتربوا أكثر ثم التفوا حولهم واقضوا عليهم جميعاً

أما فى الاتجاه الآخر ، رأت "ياسمينا" "جاسر" يقترب من "صارم" مترجلاً وقد تركها على صهوة جواده بعد أن همس فى أذن "مودة" ببضع كلمات وهى تشحب ثم تجيبه هامسة أيضا ، رأت "صارم" يهز رأسه موافقاً وهو يربط على كتف "جاسر" ، وفجأة تلاشى بين الفرسان وكأنه قد تحول إلى شبحاً .

ترجلت"ياسمينا" بوجه وجل وقلبها ينذرها بخطر ما قادم ، وعندما اقتربت من " مودة" التى كانت تسير ببطء وكأنها قد كبرت أعواما فجأة ووقفت أماها متسائلة بترقب:

– ماذا قال لكِ "جاسر" قبل أن يذهب

صمتت "مودة" بشحوب فزاد ضغط "ياسمينا" على مرفقها وهى بدأت الدموع تتدفق من عينيها قائلة برجاء:

– هل هو فى طريقه إلى القصر الآن ؟

أومأت "مودة" برأسها وفمها يرتعش خوفاً عليه ثم قالت :

– يريد أن يحسم الأمر سريعاً .. لا تخافى هو يحفظ المداخل والمخارج السرية عن ظهر قلب

****

وبينما "سيان" فى الداخل ينتظر رأس" صارم" تأتيه بين يدي قائد الجيوش سمع هتاف من خارج باب قاعة الحكم يصيح بانهيار وهنا رأى حارس بابه يدخل بوجه غادرت منه الدماء ويتبعه أحد حراس أبراج القصر العالية وهو يحمل بين يديه رأس بالفعل ولكنها ليست رأس "صارم" لقد كانت رأس قائد الحرس ، والجندى يتركها أرضا وهو يبكى فى انهيار وقد نزل على ركبتيه:

– قتلوا قائد الحرس يا مولاي .. وهم الآن يحاصرون بوابات القصر من الخارج

نظر "سيان" إلى رأس قائد الحرس الموضوعة على الأرض أما الجندى برعب وهو يتمتم بذهول :

– أين قائد الجيوش .. كيف يحدث هذا !

وقف الجندى بساقين متهالكتين وهو يقول ببكاء :

– لا أعرف يا مولاي .. سمعت بخبر فراره فور أن رأى الجموع تتجه نحو القصر

شحب وجه"سيان" بعدم تصديق وتصلب مكانه بينما انحنى الجندى ملتقطاً رأس قائد الحرس بنحيب وهو يهتف بانهيار:

– أقسم لك يا مولاي سأقتص منهم جميعاً .. سنبحث عمن استطاع الدخول ونذبحه كما ذبح قائدنا

فجأة تكسرت الثلوج من حوله وقد حسم أمره بعد أن علم بهروب قائد الجيش ورأى بأم عينيه رأس قائد الحرس ، أيقن أنه قد أصبح وحيدًا إلا من بعض الحرس فى الخارج ، أستل سيفه وهو يتجه إلى القبو كالمجنون شاهراً سيفه وقد عزم على قتل "الصالح" !، فإن لم يصبح هو الحاكم فلن يترك "الصالح" على قيد الحياة ليعود حاكما منتصرًا من جديد، وبدأ يصرخ مصدوماً وصدره يشتعل :

– اقتلوهم جميعا اعتلوا الأسوار واقتلوهم الآن

حرك الحارس رأسه بقوة وهو يتجه للخارج مهرولاً ، وما إن خرج إلى ساحة القصر حتى نزع الخوذة عن رأس قائد الحرس ورماها أرضاً ثم رفع الرأس للأعلى بين يديه وهو يهرول نحو بوابة القصر الكبيرة و يصرخ عالياً بانهيار:

– قُتل الملك "سيان" .. قتلوه الخونة !

فى ذلك الوقت كان "جاسر" يتسلق بخفة وسرعة الفهد أحد الأسوار التى انتقاها بعناية فهى بعيدة عن الأعين وأقل ارتفاعاً يحفها أوراق الشجر المتناثر على أرجائها بغير تناسق ، وهو يتمتم بانتصار بعد أن عبر داخل البستان الخلفى :

– لو لم أتدرب طيلة حياتي إلا من أجل هذا لكان كافيا

***

لم تكد تمر دقيقة على التحام الصفوف فى الخارج وقد بدأت المعركة للتو حتى سادت حالة من الهرج والمرج بين صفوف الجنود فى الخارج وهم يستمعون إلى الصياح فى الداخل بمقتل "سيان" وشاهدوا حراس الأبراج يتراجعون ويغادرون الأسوار ، وفى نفس اللحظة شاهدوا النساء والفتيات آتون من بعيد يهرولون وهن يصرخن وخلفهم الرجال

فى جموع كبيرة وكأن المدينة كلها قد خرجت لقتالهم ، لا فرسان "صارم" فقط ، تراجع الجنود بذهول وقد استغل "صارم" وفرسانه الموقف وحالة التشتت والذهول وهجموا بقوة .

وجد قائد الجيوش المدينة كلها آتية نحوه وهو يسمع الصرخات بمقتل"سيان" فى الداخل فما كان منه إلا أن ضرب بطن فرسه بقوة وهو يغيب وسط جنوده ومر من بينهم وفر بعيداً وخلفه كبير البصاصين يتبعه مقتدياً ، فعندما تغرق السفينة أول من تقفز منها الفئران !

***

هبط "سيان" درجات القبو بغل واندفاع وهو يصرخ فى الحارس آمراً بالانضمام إلى الحراس فى الأعلى عند البوابة أمام الباب الحديدى وفتح مزلاجه بقوة فأصدر صريراً مزعجاً ، دفعه واقترب من الباب الداخلى وأخرج المفتاح الحديدى بعنف وفتح الباب وهو يدفعه للداخل بغيظ شديد ، دلف للداخل ووقف ينظر على ضوء شعلة متهالكة إلى الملك "الصالح" الذى ما إن رآه حتى وقف أمامه بشموخ ونظر إلى سيفه المشهر نظرة ثبات ساخرة ، ثم عاد بعينيه إلى "سيان" لتتلاقى أعينهما من جديد وهنا صرخ "سيان" غاضباً :

– سأقتلك قبل أن تخرج منتصراً.. بعد كل تلك السنوات

قال كلمته وهو يقترب من "الصالح " الذى نظر له بثبات وهو يعقد ذراعيه أمام صدره قائلاً:

– مسكين يا "سيان" أنك لم تتعلم بعد .. تظن أنك بقتلى ستنتصر وأنت لا تعلم أن دمى سيشعل مدفئة الحرية فى نفوس الأحرار.

إندفعت شرارات اللهب من وجه "سيان" حقدًا وبغضًا وقبل أن يتقدم أتاه صوت والده من الخلف وهو يقول بقسوة :

– وأنا ايها العاق .. ماذا ستفعل بى ؟.. هل ستقتلنى أنا أيضاً

إلتفت إليه "سيان" وقال مستهزءاً :

– موتك من حياتك لا يمثل أى شىء .. فلقد انتهى دورك منذ زمن

هز "المنصور" رأسه بأسى وهو يقول:

– معك حق .. فأنا من صعنت من نفسى أضحوكة تلوكها الأفواه .. ونسيت أن انتمائك الأول والأخير لأخوالك "بني الهوذ"

نظر له "سيان" بازدراء وعاد بعينيه إلى "الصالح" وهم بالتقدم نحوه لقتله فى الحال ، لكنه توقف عندما استمع إلى الصوت القادم من خلفه يتوعده ويحذره :

– إخفض سيفك أمام الحاكم يا "سيان" وإلا قتلتك

استدار "سيان" وتعلقت الأبصار بهذا القادم من العدم ، انعدمت لغة الحروف وتحكمت لغة السيوف ..! واصطك النصلان بصليل مزعج قاتل يبعث الرهبة فى النفوس ، تفوح منه رائحة الدم الخانقة،

لقد كان "جاسر" أكثر مهارة وقوة ، لكن "سيان" كان أكثر غضباً وبغضاً .

أقتحم "صارم" وفرسانه أبواب القصر ولم يكونوا قد تأكدوا بعد من خبر مقتل "سيان" ، تجمع الناس فى الساحة فى مجموعات ملتفة حول بعضها البعض تدور بينهم محادثات جانبية ، فمنهم من ينتظر خوفا ويريد أن يرحل ومنهم من هو ثابت تلمع عينيه بالأمل والنصر ومنهم من هو مثبط للعزائم هزيل الكلمات يدعو للتراجع أينما كان ، وهى الفئة التى تأتى دائما للمشاهدة ومتابعة ما يحدث عن قرب فقط .

أقترب الجندى الذى كان لا يزال حاملاً رأس قائد الحرس من "صارم" ، أخترقت "ياسمينا" الجموع ووقفت تحدق فى الرأس وقالت برعدة سرت بأوصالها المنهكة:

– هذا ليس "سيان"

أومأ الحارس برأسه يوافقها قائلاً موجهاً حديثه نحو "صارم" :

– نعم .. هى رأس قائد الحرس.. لقد تبرعت وفصلتها عنه ليرتاح.. فلقد أصابته لوثة بمجرد أن علم بخبر عودتكم وظل يصرخ " سيقتلونى .. جاسر سيقتلنى "

قطب "صارم" حاجبيه فقالت له "مودة" على الفور:

– إنه من كان يساعدنى داخل القصر يا "صارم"

لانت ملامحه وهو يقول متسائلاً:

– من أنت يا ولدى ؟

أبتسم الحارس مجيباً:

– هل تذكر يا سيدى الجندى الذى قتل "سيان الأكبر" ؟ ..

أومأ "صارم" برأسه فتابع الحارس قائلاً:

– لقد كان بمثابة أباً لي بعد وفاة أبي .. وعندما علمت بما فعل لينقذ المملكة وبأنه قد تم قتله فى الحال بعد مقتل "سيان الأكبر" مباشرة .. شعرت باليتم مرة أخرى وقد فقدت عائلى الوحيد على أيديهم... فقررت أن أسير على خطاه وأصل إلى أعماقهم وانتظر الفرصة لآخذ بثأرى .. وبقوة
أطرقت "مودة" بحزن وهى ترى التأثر فى عيني "صارم" بينما تمتمت " ياسمينا" :

– أين هو "جاسر" الآن ؟

ابتسم الحارس بلمعة انتصار وهو يتخيل ما يحدث الآن لـــ"سيان" على يد "جاسر" وقال بغموض :

– فى القبو

إنقض "سيان" على "جاسر" بضربة قوية حانقة أجبرت "جاسر" على التراجع للخلف خطوة واحدة ليستعيد توازنه من جديد وهو يصد تلك الضربة العاصفة ، استعاد توازنه سريعاً وبادر غريمه بضربات متتالية ، كل ضربة أقوى من أختها كادت أن تطيح بسيف "سيان" من سرعتها وقوتها

قفز "سيان" عاليا ليتفادى بنجاح ضربة قاصمة كادت أن تفصل قدماه عن جسده وظهرت ابتسامة مقززة حول ثغره وهو يحكم قبضته حول مقبض سيفه وينهال على سيف "جاسر" مهاجماً ببراعة أجبرت "جاسر" على التحرك بسرعة يمينا قبل أن يلتصق ظهره بباب الزنزانة فيكون بين المطرقة والسندان، ثم انقض مرة أخرى بعزيمة أكبر وهو يهتف:

– لا أريد أن أقتلك يا "سيان" استسلم أفضل لك.. حتى الآن أنا أناورك فقط

نزع "سيان" وشاحه بعد أن دفع سيف "جاسر" وقفز ليتخطى أحد المقاعد الخشبية حتى لا يتعثر بها ، وهنا أشار "جاسر" إلى الملك "الصالح " أن يبتعد نحو الباب حتى لا يصاب وقد اقتربوا منه بقوة ، دار كل منهما حول الآخر ببطء قاتل ، وكل منهما يرقب حركة خصمه بنظرات كالصقر عازماً على الفتك به ، واستعداداً للإنقضاضة الأخيرة .. إنقضاضة الموت.

بمهارة وخفة الأحراش ، أطاح "جاسر" بسيفه ليرتطم بالجدار وليجد "سيان " نصل سيف "جاسر" مثبتاً بالقرب من عنقه وصوته الهادر يقول :

– أستسلم يا "سيان" .. لا أريد قتلك وأنت أعزل

شعر "جاسر" بيد توضع على كتفه من الخلف ، وصوت الملك" الصالح" يقول :

– لا تقتله يا ولدى فليس من شيم الفرسان قتل العُزل

ولكن من شيم اللئام التمرد والخيانة ، فأخلاق الفرسان لا تصلح مع اللئام وقد أثبت "سيان" ذلك عندما أخرج خنجرا كان بحزامه الحريري حول خصره من الخلف وغرزة بذراع "جاسر" الممسكة بالسيف ودفعة بقوة وفر هارباً ، ولكن قبل أنا يتجاوز باب القبو الحديدي أخترق سيفه الذى سقط منه منذ لحظات ظهره ليمر عبر أمعاءه ويخرج من الجهة المقابلة ، سقط "سيان" قتيلاً فى الحال فى اللحظة التى استند فيها "المنصور" إلى الباب الحديدي وهو يلتفت إلى " الصالح" و"جاسر" نظرات غائمة وهو يقول بضياع:

– أُمه استغلت ضعفى وجعلتنى أطيع "سيان الأكبر" لتنفذ مخطط قبيلتها.. وها أنا ذا أرسل لها ولدها ليخبرها .. بالفشل

نزع "جاسر" الخنجر بقوة متألما وقبض على جرحه يمنعه من النزيف وهويقول بألم موجهاً حديثه إلى الملك "الصالح":

– هيا يا مولاي الملك .. فلتخرج إلى الناس ..لقد طال انتظارهم

تعالت الهتافات وابتسمت الثغور لترسم لوحة النصر بريشة الصمود عندما خرج الملك "الصالح" فاتحا ذراعيه عن آخرهما بين الناس وكأنه يحتضنهم جميعاً ، ينظر إليهم باحترام وتقدير ، فهذا هو الجيل الذى لم يتخلى عن الحرية ولم يستسلم كما استسلم من قبله .

عانق "صارم" بقوة ثم نظر إليه بابتسامة ودودة وهو يقول :

– كم كنت حكيماً أيها "الحكيم"

أبتسم "صارم" وهو يبادله العناق قائلاً برضا :

– كم كنت ثابتاً أيها "الصالح"

أمسكت "ياسمينا" بذراع "جاسر" بهلع وهى ترى الدم يتدفق منه وقالت بلوعة:

– ماذا أصابك يا "جاسر" ؟

ابتسم ليبعث الأمان إلى نفسها قائلاً بدعابة:

– لا تقلقى يا حبيبتى .. إنها طعنة خنجر صغيرة ولقد نزف الخنجر على أثرها كثيرًا

ابتسمت بشفاه مرتجفة من بين دمع خوفها وجزعها وهى تربط جرح بجزء من ثيابها.. مزقته لأجله

وهى تخطف النظرات إلى الداخل من حين لآخر فهمس لها:

– لا تقلقى .. والدك بخير.. وكما وعدك "صارم" من قبل .. سيحظى بمحاكمة عادلة

وقف الملك "الصالح" يهتف بين الناس ليصل صوته للجميع وهو يحيهم على صمودهم وثباتهم

ثم قال معتذرا:

– أعتذر منكم جميعا فلكل منا أخطاء ولقد كان خطأى كبيرا .. لقد ظننت أن إكرام اللئيم سيعيده إلى صوابه وسيجعله يتشارك معنا فى بناء مملكتنا.. ولكننى كنت مخطئا لقد زاده الإكرام خسةً ونذالة وطمعاً .. أعتذر منكم لأنى رأيت خيوط المؤامرات من حولى ولم أطلعكم عليها لتعيننونى ولتضربوا معى على أيدي الفساد .. لقد مرت مملكتنا بالكثير فى السنوات الدامية الماضية ولابد أن نضع جميعًا أيدينا جنبا إلى جنب .. بل وتتشابك لنصنع منها طوقا نُخرج به مملكتنا مما ألم بها من خراب وفساد ودمار.. فالخطر لم ينتهى بعد .. لازالت قبيلة"بني هوذ" موجودة وستظل تخطط لتحصل على أراضينا فأعينونى بقوة .

ألتفت "جاسر" إلى "ياسمينا" مبتسماً بسعادة ثم همسً بخفوت:

– هيا بنا .. آن للمقاتل أن يرتاح قليلاً

أومأت برأسها موافقة وخرجت بصحبتة من بين الجموع وهو يلف كتفها بذراعه الصحيحة وهو يبحث بعينيه عن "جسور" ، فأطلق صفيره المميز مما جعله يأتى إليه على الفور يتهادى ببطء بين الناس المتفرقة حوله حتى اقترب منه ، حملها معه على صهوة جواده وانطلق بها إلى بستان بيته وحديقته التى يتوسطها بركة المياة المحاطة بالريحان .. حيث مملكته الخاصة .

.... تمت بحمد الله ....